

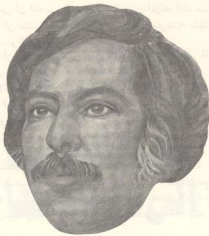
صقر الرشود

في ذكراه الاولى

كانه زرقاء اليمامة ، او كانه الطير الذي يستشعر هبوب الرياح
قبل هبوبها !
هل كان يقفرا المستور؟؟
شفافيته كانت تحمل رسداً فائقاً ، وحدهه كان يحمل الكثير من
حسم الصدق ووضوحه !
نلك الذي خسرناه وهو في عز عطائه وركضه السريع نحو
النضوج والابناع .
صقر الرشود تحل ذكراه الاولى وصدق كلماته لا زالت منقوشة
كانها الوشم في الصدور وعلى الاذرع ..
هل هي مصادفة ان يكتب عن الصدق والحياة والموت في الكتيب
الذي وزع مع آخر عمل اخرجته في الكويت « عريس لبنت السلطان »؟؟
ليست مصادفة على ما يبدو .. شفافيته كانت كالاشعة الخارقة ..
فصدقت !

هذه كلمته .. فالرحمة له ولنا ولحبيه ولآله العزاء .

« البيان »



«الصدق»

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هل بإمكانك التخيل مدى الضنى والسهر والارق والخوف والتحفظ والقلق والجهد الذي تبذله لو كان لك ابن واحد اجبرتك ذاك وطبيعتك كأنسان أن تتعامل معه .. بصدق ... ولا غيره ... وتعطيه من فيض روحك ومشاعرك وتجربتك ودمك ؟

لا شك أنك أكثر قدرة على استيعاب المعاناة المضنية لو كان هذا الابن عاقا مثلا ... فما بالك اذا كانوا الابناء أكثر من واحد ؟ ثلاثة ... او ... اربعة ... او خمسة .. وتنافرت طبائعهم واتجاهاتهم ؟

كذلك الاعمال المسرحية .. ذات طبائع واتجاهات واهداف والوان مختلفة .. كل مسرحية لها عالمها وطابعها الخاص .. وكل منها ينفرد بتجربة مرهقة تختلف عن الاخرى اختلافا كليا .

فاذا كان الصدق طبيعة متصلة فيك .. بل هو قدرك في التعامل مع كل شيء .. ويأتي في قمة التعامل طبعاً .. الابناء ..

وعلى افتراض ان لك من الابناء خمسة ومن المؤكد انك صادق جدا .. اذن .. لا بد ان تشعر بعدم الرضا .. وهذا يفرضه عليك صدقت مع نفسك اولا .. والاخرين ثانيا .
ولا بد ايضا ان تكابد القهر المحرق الدفين نتيجة لبذل التضحيات الجسام والتي يفرضها وجود الابناء ذاته كنتيجة حتمية .
اذن ... الانسان مجبر ان يعيش في جدل مطرد .. وفي عذاب دائم باسباب تلك الفجوة التي تفرض نفسها دائما بين تحقيق كل الطموح الوائب في تهذيب وتربية الابناء وبين ما يمكن واقعا تحقيقه بشكل متعثر .. بل بعبارة اخرى .. ما يمكن ان يسمح به الواقع المتردي فقط وبشكل متلهل .

وانت حين تتعامل مع ابنائك .. تتعامل معهم ضمن بيئة محددة .. ايا كان مستواها ومحيطها .. ولكنك حين تجرب التعامل مع الاعمال المسرحية .. فانك سوف تدهش حينما تكتشف انها تفتقد البيئة والارضية التي تقف عليها وتحيا في نطاقها .. وتكمن الصعوبة .. انك تتحرك في فراغ .

والصدق اقول .. ان الاجبار هو سيد الاختيار .. اذ انني عملت حتى الان مايزيد عن الثلاثين عملا مسرحيا في جو مجتمعي محافظ يعطى بالمعقبات .. هذه الاعمال كالابناء الاعزاء ... ولو انني كنت ادرك قبل ان اخطو اول خطوة قبل ثمانية عشر عاما ما يكلف الصدق ولا غيره .. لتراجعت وتخاذلت وانثنت

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>
والحق اقول .. انني لا اعلم .. كما انني لم اتصور بأي حال من الاحوال ان الطريق مكسب بالمشاق والمكابدات العسيرة .. فالطريق .. هو القدر الملهب .. والهدف المراد الوصول اليه في اخر الطريق .. هو الحياة .. كما انه بالنقوش التي خلف الواجهة ... هو الموت .. ولا غيره ..

ولكننا نختار الطريق .. ولكننا نفقد القدرة على معرفة شكل الطريق ومضمون الطريق ..
واخيرا .. فالاجبار هو سيد الاختيار .

وعدم الرضا مقرون بالصدق ولا غيره .
والمعاناة المحرقة هي الوليدة الشرعية للحياة في قمة سموها .

صقر الرشود
بداية ١٩٧٨

خطاب إلى سيدنا روح



الشاعر أحمد شاري العدواني

-
- لا زال الشاعر أحمد العدواني حاضرا وفاعلا في قلب محبة الشعر وإبداعاته .
وهذه القصيدة هي أحدث ما خطه يراع هذا الشاعر المبدع نشرتها جريدة القبس .
ويسعدنا نشرها ثانية في البيان .

أصوات :

① خطاب الى سيدنا نوح

- ١ -

سَفِينَةُ النِّجَافِ
تَعِيشُ فِي مَأْسَاةٍ
اشْتَمَلَ الصَّبَابُ فُجْأَةً عَلَيْهَا
فَجَنَّتْ عَنْ نَهْجِهَا الْمَرْسُومِ
وَأَصْبَحَتْ تَدُورُ فِي أَضَالِيلِ الْغَيُومِ
وَتَحْصِفُ بِهَا الرِّيحُ
تُمَزِّقُ الشَّرَاعَ . تَنْقُضُ الْإِلَاحَ
وَاضْطَرَبَ السَّكَّانُ فِي بَيْدِ التَّرْبَانِ
وَحَارَ لَا رَأْيَ لَهُ وَلَا سُلْطَانِ
وَرَا حَتِ السَّفِينَةُ ...
تَخْبِطُ فِي الطَّرِيقِ لَا تَمْلِكُ مَجْرَاهَا وَمَرَسَاهَا
وَسَلِمَتْ زَمَامُهَا إِلَى تَصَارِيفِ الْغَيُوبِ تَتَوَلَّاهَا
وَكُلُّ خَطْوَةٍ مِتَاهَةً لَهَا
فِي لُجْجٍ لَا تَبْلُغُ الظُّنُونُ مَغْزَاهَا
بَلْ تَتَخَذَاهَا
أَنْ تُبْصَرَ الْمَسَالِكَ الْأَمِينَةَ

— ٢ —

وَدَوَّمتْ سَفِينَةُ النِّجَاةِ
فِي مِهْوَاةٍ
وَالْغَرَقُ الْمُنْهَوْمُ فَاغْرَفَاهُ
يَنْتَظِرُ الْإِشَارَةَ
كَيْ يَبْلُغَ الرِّبَاةَ وَالْبَحَارَةَ
وَتُخْتَفِي فِي سُدُمِ الظَّلَامِ نَجْمَةُ الْحَضَارَةِ
وَيَدْرِكُ الطُّوفَانَ مَرْمَاهُ
— ٣ —

بِأَنُوحٍ أَدْرَكْنَا
مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِمَرَ الطُّوفَانُ بِالسَّفِينَةِ
وَتَفْقُدُ الْأَرْضُ مَظْلَّةَ الضُّبَابِ
فِي عَالَمِ الْقِيَمَاتِ إِلَى عَسَاكِرِ الظَّلَامِ
فَقُتِرَتْ لَهُ قِيَوَانِيقُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ
وَقَطِرَتْ فِي أَحْقَابِ الزَّمَانِ قَبْلَ الْفِ عَامٍ
فَبَاعَ دُنْيَاهُ وَبَاعَ دِينَهُ
وَقَدَّسَ الصُّخُورَ
صُحُفًا وَحَجَرًا
وَهَامَ فِي دُنْيَا الْقُبُورِ
فَأَقَامَ مَنِيرًا
تَنَاوَبَ الْمَوْتَى عَلَيْهِ يَخْطُبُونَ
يُكْفَرُونَ
كُلَّ جَبِيلٍ هَمَّ أَنْ يُفْكَرَا
وَيُكْشَفَ الْفِتْنَا

عن سادة رعاغ
تصدُر بالمعادات والطبّاغ
عن رَمَم تحت الثرى
ترفض أن يكون للانسان منزّل فوق
الذرى

— ٤ —

يا نُوح ادركنّا
فليس إلا أنت بين الانبياء
ساد على الطوفان
وعاد بالحياة والاحياء
على سفينة الهدى الى بر الامان
يا نُوح ادركنّا
من قبل أن تُغادر الحياة غرقى
مثل ابنك المسكين
أفرّعه الطوفان فاستولى على أعصابه الخبل
فكان بين المغرقين
ولو درى الطوفان كالزلزال
يأتي على الجبال
بذرها هباء
لم يعص للحق نداء
ووجد النجاة في حمى القلک الامين

— ٥ —

يا سيّد الربابّة
يا نُوح ادركنّا

من غرق يمين
 أشك بنا قصد الطريق الآمن
 يا قاهر الطوفان
 بالحكمة واليقين
 يا نوح ادركا
 يا نوح ادركا
 يا نوح ادركا

٢ دعوة

احبائي !! لن خالفتموني
 ورمتم وجهه ديب غير دربي
 لقد اترككم هواي صرفاً
 ولم أشفق على اسرار قلبي
 رقت لكم بحبي فأعذروني
 اذا لم تشعروا برموز حبي
 وعنت قضية وجهلتموها
 فحسبي لعنة التاريخ حسبي !!!

٣ جواب

تسألني الغريبه عن دباري
 وما علمت دباري أرض غربه
 فقلت لها دباري حيث ألقى

غريب هوى يبادلني المحبة
دياري فكرة كالنور تشري
وما احتبست على علم وتربة
تركت سواكن الأوطان خلفي
لمن ألف الحياة المستتبة
وسابقت الرياح بكل أفق
فلي والريح ميثاق وصحبه





قصة: طالب الرضا

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

« ان الرغبة في معرفة المرأة هي دائما نوع من امتلاكها ، أو نوع
من الانتقام منها ! »

_____ اندريه مالرو _____

ببطء شديد ينقلب الى الناحية الاخرى ، وجهه اصبح في مقابلة
الحائط ، رعشة تسري في جسده ..
(اللعنة !!)

انكش داخل غطائه .. احس بالدفء .. ادار راسه نحوها ..

● الكلام الذي بين القوسين (...) هو كلام بطل القصة مع نفسه « المتألوغ »

— ابتعدي أيتها العاهرة !!
— أرجوك أن تخفض صوتك ! الولد نائم ..
(لو كان نومي عميقا .. لو كنت نائما في الغرفة الأخرى مع
أخوتي ...)

يتلصص النظر اليهما .. دون وعي ، نظره يتسمر عليهما ..
الانئين .. هو مستلقي على ظهره ، وهي جالسة على حافة السرير
.. تنحني عليه تقبله :
— الآن ؟! بعد أن شبعت منه ؟!
— أقسم لك أنني لم أره ! ذهبت لرؤية اولادي !
(اللعنة ! أين ذهب النوم ؟!)
يسحب الغطاء على وجهه ..

(أنا سبب هذا .. لو بقيت في الغرفة الأخرى .. لكنت مرتاحا
هناك .. — على الأقل — لم أشعر بمثل هذا الاشمزاز يجتاح نفسي !)
صوت القيلة يصله .. الغثيان يطفح بداخله .. به رغبة للتقيؤ .
(حقارة .. أنه ينوي أن يضاجعها أبائي .. يجب أن يعلم أنني
لست نائما)
بثقل جسمه .. يتقلب فوق السرير محاولا أحداث صوت .. لا
صوت .. <http://Archivebeta.Sakhrit.com>
(يا لك من سرير حقير .. يجب أن يكفا عن .. عن هذا ..
سأنتقيا على نفسي ..)
هو يحاول أن يعزي نفسه ..

(ولكن اليس هذا من حقهما ؟! .. هما زوجان ، أمي وأبي ..
يجب علي أن اتناساهما بل من الواجب علي أن أسعى لاسعادهما ..
ثم أن ديننا يأمر بذلك .. ولكن كيف يحق لهما هذا وأنا أنظر ؟!)
يلتفت نحوها .. أبوه يحاول التخلص من « سرواله » الواسع
بينما أمه واقفة ويدها تعبثان بازرار ثوبها الخلفية .. بسرعة
يغض عينيه .

(اللعنة !! ألا استحي ؟! ألا أخجل ؟! قبل يومين شاهدت كلبا
يدور حول كلبة .. يشم مؤخرتها .. في البداية كانت تبتعد عنه .. هو
يلحق بها .. يحوم حولها .. لست أعلم تماما لماذا كنت اتابعهما بلذة ..
الكلب بدأ يمرر لسانه على مؤخرتها .. ونجاة وجدتها تقف دون حراك

.. اذن اخيرا رضخت .. بل سلمت نفسها .. دون وعي مني امتدت
يدي الى ... لاول مرة اتشعر من نفسي .. نفرت منها فلتقد كان
... ي ... الكلب يمتطي ظهر الكلبة .. تتأوه تحته .. انا اعصر
جسدي ويدي على ...)
— آه !!

هو ينتبه .. يلتفت نحو مصدر الصوت .. ابوه كان بلا شيء
بينها هي ما زالت تتخلص من ملابسها الداخلية !! صورة امه مكبرة
على الحائط امامه .. الغشيان بداخله ..
(علي ان اخرج قبل ان اراها يت ... سوف انهض .. ولكن
ماذا سيفعلان عندما يرياني ؟! سترتبك امي .. هذه ليلتها الاولى معنا
.. قضت ثلاثة ايام بعيدة عنا .. ذهبت لترى ابنائها من زوجها الآخر ..
هم اخوتي لامي .. هو يتهمها باتها ضاجعت زوجها السابق .. ابي
— دائما — يسيء الفن وانا دائما اكرهه .. وكذلك لسانه لا ينطق
الا « القذرة » ولهذا انا امقته ..)

— هيا .. تعالى !!
صوت ابيه يصله فيقطع عليه عزله ..
(تاخرت كثيرا .. كان يجب ان اشعرها بانني يقظ منذ البداية ..
لقد ضاعت الفرصة .. علي ان ادفع الثمن)
يحاول ان يتجاهلها ..
(اللعنة !! الا يستطيعان ان ي ... وهما سباكتان .. فقط دون

تاوهات .. في الاسبوع الماضي سرقت مائة فلس من صرة جدتي وخرجت
بها خلسة الى ابن جيراننا « حميدو » — ابو نادية — هكذا يسميه
الجميع .. لانه دائم الكلام عن الغانية نادية والتي جاءت الى حيننا
من مكان يقال ان اهله بالهون من يصبح عليهم رئيسا .. كان يبيع
الصور العارية لنا .. هو يعمل في الميناء جمال .. جميع اولاد الحسي
يشترون منه .. كانت المرة الاولى لي .. هو فوق السطح — مع
« حملة » ، في السادسة عشرة .. احاول ان اريه نفسي .. منشغل
.. احرك يدي .. يتابع حمامه .. طوال الوقت كانت يدي مقلقة تضغط
على المائدة فلس .. رغبة عارمة كانت تتملكني لرؤية فتاة عارية
وتفحصها .. كيف ستبدو ؟! .. ما الذي يظهر منها ؟! « احمدو » ابن
خالتي اطلعنني مرة على صورة ابتاعها من ابي نادية ، كان يساومني على
دراجتي ليركبها .. ولكن ابي كان يضربني اذا ما شاهد اي شخص
عليها ، ما عدا ابن المختار ، والذي لا ينفك يامرني ان لعب معه ..
كانت الصورة لفتاة شابة ، وقفت قرب شجرة وقد كشفت عن اثنائها

وكذلك ... ها وبالطبع باقى جسدها .. طلبت منه ان يحتفظ بها ولكنه
رفض :

— انها بمائة فلس ! اليست جميلة ؟!

رमित ابي نادية بالصخر .. الاولى بعيدة عنه .. الثانية .. هو
يختفي عن بصري .. يدي تقبض على صخرة صغيرة بانتظار ان يظهر
.. اطل من فوق ..

— ماذا تريد ؟!

اومات له بيدي ..

— ماذا ؟! تكلم ؟!

التفت حولي .. لا احد ..

— تعال !!

الوح له بالمائة فلس .. هو ينزل :

— ماذا تريد ؟!

— اريد .. ص .. ص .. اريد صورة !!

— آه ! انتظرنى لحظة !!

يدخل منزليهم .. انا جالس تحت حائطهم ويدي تعبت بالتراب ..
طال انتظاري .. هو لم يخرج .. المائة .. القلق .. نهضت .. ابتعدت
قليلا عن الحائط .. اطلع الى السطح .. لا احد .. ارجع الى مكاني
.. سرق المائة .. لا ! سيعود حالا .. ربما هو ينتقي صورة جميلة ..
تمنيت لو تكون مثل صورة « اجدو » تراكم الانتظار يشعرنى بالقلق ..
الانزعاج .. نهضت .. لا احد فوق .. وفجأة انفتح بابهم .. اسرعت
نحوه ..

— خذ !!

يده ممدودة بالمائة فلس ..

— لماذا ؟! اريد صورة بها !

— خذ ابي في الداخل ولا استطيع !

— سانتظرك !

— لا استطيع !

— ارجوك !!

— الا تفهم .. ابي موجود .. خذ !

— اجيء لك العصر !

— قلت لك خذ .. لن ابيعك !

— حسنا غدا !

— آه !!

وفجأة زابته يرمي بالملقة بعيدا في الهواء ومن ثم يدخل بيتهم ..
مضت علي ساعتان وأنا ابحث عنها ولكن دون جدوى .. أن جدتي
تصلي لهذا فان الله يعاقب من يسرق نقودها .. ذهبت حزينا الى
بيتنا ، بقيت زما اتفحص تلك البقعة بحسرة كلما مررت عليها ..
— آه !!

الصوت يمله .. ينتبه .. يلتفت نحوها .. أبوه مسلق على
ظهره دون حراك ، بينما أمه تفتح باب الغرفة لتخرج .. ببطء شديد
ينقلب الى الناحية الاخرى ليصبح وجهه في مقابلة الحائط ...
طلاب الرفاعي — الكويت



ذِكْرُكَ تَ صُوفِيَّة

يهفو لها القلب وانسداء
وروضة في الروح غناء
وسيرة في النفس غراء
ومنهج كالصبح للاء
كما شددت في الروض ورقاء
وفي صميم القلب اصداء
ونجمة في الفكر زهراء
وجنة خضراء فيحاء
مامر اصباح وامساء

نكرك اشواق واشذاء
نكرك انسام تبل الصدى
نكرك نور ساطع ضوءه
ونفحة كالعطر في نشرها
نكرك كالانعام نشدو بها
نكرك في الوجدان انشودة
وبهجة نسبح في نورها
ومنية نرفل في حلمها
نكرك باق في الحشا واسخ

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

★ ★ ★

والشعر الهام وايحاء
والوحي افكار واءاء
حلوا له ومضى وايحاء
شددو وللآذان اصغاء
اشتاقه ، والشعر اسراء

يا ملهم الشعر اغنى به
ابنه ماجاش في خاطري
الهمتيه دافقا رائعا
يبدو فلألسن من وقعته
اسري باشعاري الى عالم

★ ★ ★

بدا له الحح وسيماء
كانه راح وصهباء
كما سرى في الجفن اغفاء

نكرك اما اشتد في خاطري
روحي من ايقاعه تنتشي
يسري باوصالي في سحره

رويح واضناء

للشاعر عبد زكريا الانصاري

اراك في عقلي وفي خافقي
تظلني من واقع ملؤه
رؤى لها في النفس اغياء
كالبحر ازبداد وارغاء
تختال فيه الحياء والباء
اهيم فيها حلما رائعا

يا منية النفس ويا بهجة
غرقت من حبك في لجة
وجنة في الروح خضراء
يطغى بها موج وانواء
يلفني زهو واغراء
تحيطني ظلماء وظلماء
وتارة اهوي الى قعرها
فتارة اطفو على سطحها

اشقى بدنيا الحب لكماء
واسمك في سمعي له رنة
حبك في قلبي نعماء
معناه اشياء واشياء
لكنه نعمى وباساء
(ذكرك ترويح واضناء)
فهو الهوا والنار والماء
اجفى يدنيك على قدره
اغفو واصحو ابدا منشدا
حبك في مجرى دمي دافق

يا ملهم الايات نشدو بها
فانت في روعي وفي خافقي
(وانت الهام وايحاء)
قصيدة تختال عصا

قصة قصيرة



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakka.com>

موجز الأحزان الجميلة

حساس يحيى

التي انتظرها غابت ، والتي لم
ينتظرها من قبل حضرت .
سألته : ماذا تعني ؟

في غيابها احتمالات عديدة ، وفي
حضورها تردد . وما بين الاحتمال
والتردد كانت تتقاسمها هبوم اخرى .

على سريرها الوردي ، استلقت ،
 حاولت ان تنام . أحسّت بالاختناق .
 تحبه وتقسو عليه ، ويحبها ويحنو
 عليها ، وحبهما قائم على لمسة
 وابتناساة وكلمة . لمسات أصابعه فوق
 أصابعها ، يقول لأصابعها حديث
 عذب .. يتمتع هذا الحديث ، وتبتلع
 أصابعها ، فلا تستجيب إليه ، تبدو
 قاسية محنطة ، في حين تكون أصابعه
 دافئة حانية كأم .
 تسألت : لماذا فعلت ذلك ..
 رفضت مواعيده ، ولمسات أصابعه ،
 وسحر كلماته ؟ وتجب : تأخر ، تأخر
 طويلا عن الانصاح .. وظل شاعريا
 .. قابوس حياته كلمات .. سرب
 من الكلمات العذبة .

قال : كنت أنتظر . أعجل الوقت ،
 والوقت ثقيل .. ثقيل ، غابة وجهك
 ضاعت ، ورأيت كل الغابات قد
 حضرت .. وجوه عديدة ، بينها فتاة
 مرت من أمامها كل أرقام الحافلات
 وبقيت تنتظر . وكنت مثل محطة تمر
 بها كل القطارات وتبقى تسمع
 الاصوات والاصداء .
 واعتذرت بخجل : أمي مريضة ..
 ولم نتلق على موعد ثابت . كتبت ولم
 تعرف رأيي .
 وقبل اعتذارها ، كان لا بد ان يقبل ،
 فهي تعرف حاجته اليها ، ورغبته
 فيها ، وسعادته بوجهها ، لكان
 وجهها كل الحقائق نهارا وكل النجوم
 ليلا ...

●●● ARCHIVE ●●●

ظل يحدثني في سقف الغرفة ، بعد
 أن أطفأ المصباح ، وحاول ان ينام في
 الظلمة ، فراحت الاشباح تلاحقه ،
 وصورتها تناديه ، وابتناسمتا تتعلق
 به .
 وماتت كل الاغاني فوق شفتيه .
 تذكر حديث الليلة الماضية مع
 صديقه ، لم يكن يأمن الاخرين
 بسهولة ، فالصداقة علاقة مقدسة ،
 والعلاقات المقدسة نادرة ، لذلك بقيت
 علاقاته محدودة . صديق واحد في مكان
 بعيد ، يقصده حين يحس بالاختناق
 والتعبير عن هموم ينوء بحملها ..
 ويرتاح عندما يتنفسها امام صديقه ،

وموعد آخر كان في سلم الارقام
 ... الساعة دقت . الان تخرج من
 المدرسة حاملة كتبها وتلاحق حضوره .
 كان خجلا ، وكان في داخله همس
 حزين .. ألا تراه .. ويراه ، ويراه
 ولا تراه . ايهتف بها ؟ انتهت بالآخرين
 .. اين هو ؟
 هتانها واحد . وحاجاتها واحدة
 .. لكانها شجرة واحدة .. تثمر
 فرحا .. والفرح يمدفون في امكنة
 بظلمة .. فمن يستل فرحا هذا
 مكانه ؟



يسأل نفسه . لم تقل له مرة : انت العزيز .

يذكر مرة قال لها : انت الحبيبة .
فغضبت ، وحين سألها عن
السبب ، أجابت : « الحبيبة » كلمة
يقولها الشبان الصغار ..

ويضيف سعيدا : وحبنا اكبر منها .
تضحك ، الضحكة استجابة ...
وتسره الضحكة ..

لكن الضحكة في عينيها وعلى شففتيها
الورديتين تستمر ، تبادلها هذا الرجل ،
وهذه الزميلة ، وهؤلاء الصغار ..
وكما انه يحب الناس جميعا ، يحب
ان تكون الضحكة له ، له وحده .

— اليست هذه انانية .. وانت
تريد ان تسجن ضحكة تنطلق ..
انت سجان وتمارس العبودية ؟!

يخاطب نفسه مرارا ، ويكره
عبوديته ، يتحول أسيرا في نظرتها
الجنون ، وكلامها المثلث بالعتاب ..
ويبقى يعيش أحزانه الجيلة .



للمرة الثالثة قالت له : احبك .
وللمرة الثالثة أيضا قالت له : انت
أخي .

ويبقى حائرا بين أخوته وحبها ..
ايكذب مع نفسه ، يستجيب لعنات
انفعالاتها ، ويسكت عشقه المشحون
اليها ؟

يقول : احبك كما أشاء ، وحبك لي
كما تشائين .

يحبس بانه يتنفس برئة جديدة وهواء
جديد ..

وصديقه هذه المرة حمل اليه
همومه . مرضه وعشقه معا ، وانقل
بهموم لاحقة ، فيكي بصمت ، وارتفع
صوت نحيبه ، وفزع الصديق :

— ماذا ... ما بك ؟
— لا شيء ... لا شيء ، وتبكي ؟
— فرحان بك ..

— حزنك غريب ، وبكاؤك حاد ..
قل ، قل ما بك . الرجال لا يبكون !
— يبكون ، يبكون عزاء لأحزانهم
الجيلة .

ويبقى صديقه حائرا ، ويسأله :
— أي حزن جليل لم أعرفه ؟
— هذه المرة لن تعرف .
— أريد ان أعرف .

— لن تعرف . فأحزاني جيلة ،
وأنا أعشتها .

ويضحك صاحبه ، يقول :
— هه .. يعيش أحزانه .

ويفترقان . يعود الصديق الى
بعده . وهو الى أحزان غرفته ووحدة
همومه ، فمثل هذه الهموم .. تبقى
طي الكتمان ، وتبقى مصدر ضوء في
أعماقه .

الغرفة تضيق ، هي موجودة ،
بهتف بالجدران ، يدفعها بأصرار :
— لا ، لا .. أخاف أن تختنق
العزيزة .

ويأتيه صدى جدران ساكنة ..
عزيزة ، عزيزة ...
— وانت الست عزيزها ؟

وفوجيء بأنه كان يفكر بهـذـه
السعادة . أجابها :
— هؤلاء .. أسعداء حقاً ،
يبتسمون ملء رئاتهم .. وينطلقون
في حركات نشوانة ؟

كان المسرح ملتحمًا ، فالجهور
قد أخذ قسطاً كبيراً من المتعة ،
والرقصات منسجمة ومتوازنة وحية
.. والجميع يصفقون .. وكانت
سعادته الوحيدة أن يصفقاً معا بكفين
لا أربع .. وأمسك بيديها .. وجمع
الاصابع وراح يصفق وإياها ..
وشعر بالنشوة .

وحدثت في عينيه ، ابتسمت له ..
قال : نحن أسعد مخلوقين .
ولم تجبه .. بقي صمتها ساكناً ..
وأحزنه أن تسكت .
والخف يبحث عن تعليل صمتها ..
بينما كان الآخرون يحدقون في نشوة
وحيدة ، وضحكة يتيمية على شفسي
عاشق .. وكانت هي تنفست بمتعة ..
عندئذ قال في سره : هذا موجز
الاحزان الجميلة .
وافترقا .. وبكاء ظل يلح الـسى
الفة ...

حسب الله يحيى

— بغداد —



كان يعرف انه سيفتقدها يوماً ،
ويخاف معرفته هذه ، لا يريد أن يصدق
فقدانها من أعماق فؤاده ، ويكسر
هذا الخاطر ، فمعناه أن الهـواء
سيخفقه ، فهو يحبها ، وهي موجودة ،
وهواء بدونها غبار خائق .. وعدم
محتوم .



الى جانبها ، صفحة خدها فـى
مواجهته . مرة طبع على هذا الخد
قبلة يتيمية ، يداها مسدلتان .. أكثر
من مرة احتضن كلتا يديها ، وراح
يقبلهما ، كما لم يقبل يدا من قبل ،
فتقبل الايدي خضوع ومذلة ، وهو
يريد أن يحبها دون أن يشعر بهذا
الخضوع وهذا الذل ..
سجبت يدها .
— لماذا ؟

— الناس ينظرون !
— ماذا نفعل .. هل نحن نرتكب
اثماً ؟!

— في نظرهم .. نعم .
— هم على خطأ .
— نحن .. نمارس سلوكاً صحيحاً
نعبر عن حبنا .

وتنظر اليه ، دائماً يقتنعها ، ودائماً
تعرف انه احرص عليها من نفسها ،
فكانها منه وهو المسؤول عنها ، وهي
كله .. وهو غير موجود دونها .
وتشير اليه : — انظر .. هذه
الرقصة ، الكل فيها أسعداء .

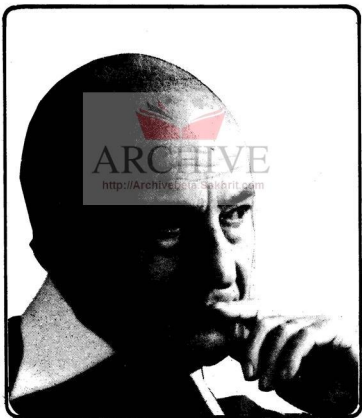
رسالة أوروب

جائزة نوبل في الآداب عن عام ١٩٧٩ للسّاع اليوناني أ.أوليتيس

في شهر اكتوبر الماضي ، اعلنت جائزة نوبل في الاداب عن عام ١٩٧٩ ولا شك في ان كل مثقف في العالم يتشوق دائما لسباع « الاسم » الذي حصل عليها . والواقع انها ، في بعض الحالات ، عبارة عن تنويج نهائي لجهود كاتب ، نجحت اعماله ، بعد ان تجاوزت حدود وطنه القومي ، في الحصول على اعتراف العالم وتقديره .

ليس المشرفون على الجائزة سوى بشر . ومن ثم ، فلا ينبغي ان ننظر من احكامهم عدالة مطلقة . فكثيرا ما اخطأت الجائزة ، وما زالت

من : حامد طاهر - باريس



تخطيء ، من يستحقونها . لكن الملاحظ بصفة عامة ، ان بعض من حصلوا عليها ، وخاصة في مجالي العلوم والاداب ، يستحقونها بالفعل . ومع ذلك ، يمكن تقسيم هؤلاء الى مجموعتين :

المجموعة الاولى : تتكون من كتاب كبار ، لا تكاد جائزة نوبل تضيف الى مكانتهم شيئا . فهم برصيدهم الفكري القوي قد احتلوا مكانا عزيزا لدى القراء ، وباعمالهم الخالدة قد حفروا في وعي الانسانية اسماءهم . ويكفي ان نستشهد في هذا الصدد ببعض الامثلة : طاغور (١٩٢٣) ، برنارد شو (١٩٢٥) ، برجسون (١٩٢٧) ، ت.س. اليوت (١٩٤٨) برتراند رسل (١٩٥٤) ، هنجواي (١٩٥٤) البير كامي (١٩٥٧) ، صمويل بيكيت (١٩٦٩) .

المجموعة الثانية : تتكون من كتاب كبار ايضا ، تألقوا في اوطانهم الخاصة ، وداخل حدود لغتهم ، ولكن جائزة نوبل تأتي لتلفت اليهم والى اعمالهم انظار العالم كله . ومن هذا القبيل يمكن ان نستشهد بـ : سيبطلر السويسري (١٩١٩) ، مان الالماني (١٩٢٩) ، بونين الروسي (١٩٣٣) ، نيلل الابريكي (١٩٣٦) ، بيسترال الشيلي (١٩٤٥) ، وايت الاسترالي (١٩٧٢) و . . . اوليبتيس اليوناني ، الذي حصل عليها هذا العام .
الواقع ان التنبؤات لم تكن قط تتردد حول اسم هذا الاديب الاخير . . بل ان مجرد اعلان اسمه قد اثار غضب الكثيرين الذين كانوا ينتظرون الجائزة امثال : اليجو كارينتر — اكتافيو باز — ياني ريتنوس ولوى بورج (الذي كتبنا عنه في البيان — العدد ١٦٣ — اكتوبر ١٩٧٩) . ولكن احدا من هؤلاء لم يحصل عليها بل منحت — فجأة — الى اوليبتيس .

ويبدو ان اكااديمية السويد قد احست — سلفا — بهذا الشعور . فالحقت باعلان اسم الفائز تقريراً مطولاً — ربما كان من اطول ما دمجته في تاريخها — لتبرير اختيارها له ، وللتأكيد على دوره في مجال الادب المعاصر . لكن المهم هو ان العالم كله قد بدا يلتفت للشاعر اليوناني ، وفي ليلة اعلان الجائزة ، اسرع احد الناشرين الفرنسيين بتكليف احد المترجمين بنقل كبرى تصائد الشاعر من اليونانية ، وطرحها صبيحة اليوم التالي في جميع المكتبات الفرنسية واماكن بيع الجرائد ، حيث اختطفها القراء من شتى المستويات .

كما اخذت جميع الصحف والمجلات الثقافية في التعريف بالشاعر ، وتحليل اعماله متداركة بسرعة بالغة مدى تقصيرها في حقه . وكانت بعض المجلات الادبية في فرنسا قد احست بالذنب ، فكتبت تقول : « لقد سبق ان كتبنا عن اوليبتيس مرتين : الاولى في يناير سنة ١٩٧٨ ، والثانية في

اغسطس سنة ١٩٧٩ . « وذلك حتى تطهّن قارئها الى انها قد ادت (واجبها) نحوه في هذا المجال !

ومع ذلك ، فلكل عذره . اذ ان قدرة الكاتب على اختراق مجال وطنه القومي لم تتوقف في يوم ما ، على جائزة رسمية ، او اعتراف حكومي . فالكلمة اقوى من كل هذه الشكليات . كما ان ذوق القراء هو افضل حكم في خلود الكاتب او رفضه . ومهما حاولت اجهزة الاعلام في فرض كاتب ضعيف على القراء ، فانها لا تفعل اكثر مما يفعله الاطباء المعاصرون في محاولة اعادة الحياة — بالطرق الصناعية — الى محتضر !
فليهنّا اوليتيس بالجائزة . ولنشرع نحن في قراءته ، فربما وجدنا فيه الشاعر الذي يلهم في مشاعرنا وترا ، او يضيء في طريقنا علامة .

الشاعر وعصره :

ولد اوريسوس اوليتيس في ٢ نوفمبر سنة ١٩١١ ، بجزيرة كريت .
ابوه احد رجال الصناعة الناجحين . وقد استطاع ان يهيء لابنه حياة برجوازية رعدة في العاصمة اليونانية : اثينا ، التي انتقلت اليها الاسرة كلها سنة ١٩١٤ .

في كولانكي ، ارقى احباء اثينا ، قضى الشاعر فترة شبابه كلها .
والواقع انه لم يقادر هذا الحي الجميل الا ثلاث مرات : الاولى قضاها في جزر بحر ايجه ، والثانية والثالثة ليقوم فترتين متقطعتين في باريس .

منذ الصغر ، درس اوليتيس الادب اليوناني الكلاسيكي ، والادب الفرنسي . ثم التحق بالجامعة لدراسة القانون . وحتى تلك اللحظة ، لم تكد حياته تخرج عن الخط الذي تمتد فيه حياة اقرانه من ابناء طبقته .

لكن نقطة التحول تمثلت في لقائه سنة ١٩٢٩ بالسريالية ، وزعمائها اندريه بريتون زعيم الحركة ، وبنجامان بيريه ، وايف تانجي ، الذين ارتبطوا مع الشاعر بصداقة حميمة ، وتبنوه منذ البداية . بعد ذلك بست سنوات ، كان لقاؤه مع واحد من اوائل علماء التحليل النفسي في اليونان المعاصرة ، هو اندرياس امبيريكوس ، الذي كان له — بشخصيته كما يعلمه — على الشاعر اثر كبير .

في حوالي سنة ١٩٣٥ ، عاد نيكوس انجوتو بولوس من فرنسا : سرياليا ، ورساما ، وشاعرا ، لكي ينضم الى جماعة ادبية ناشئة كان يشترك فيها كل من ثيوتو كاس (روائي شاب) ، وجورج سيفيريس (الموعود بان يشغل منصب سكرتير في سفارة !) ، وخاصة كاتسيمبسا

ليس (شخصية قوية ، متعددة الألوان ، ومخلدة في رواية هنري ميللر : نصب ماروس) وأخيرا الشاعر الشاب **اوليتيس** . . راح افراد هذه الجماعة المتقاربة الاتجاهات والميول يتعاونون في اصدار مجلة بعنوان Ta Nea Grammata « **الاداب الجديدة** » . . وقد ظلوا يحملون ، في

تاريخ الادب اليوناني الحديث ، لقب « **جيل الثلاثينات** » .
في سنة ١٩٤٠ ، نشر اوليتيس اول دواوينه الشعرية بعنوان **اتجاهات** : مزيج من السريالية والتراث الشعبي . وعلى حد تعبيره ، فقد اراد ان يعطى للغة اليونانية جسدا حيا . . اولى كلمات الديوان هي Eros وتعنى الجنس !

لكن الحرب العالمية الثانية ، التي اشتملت في سنة ١٩٣٨ كانت قد بعثت جماعة اوليتيس الى الابد . . وفي اثناء الحرب ، نجد اوليتيس ضابطا برتبة ملازم اول على الجبهة البولونية يحارب الفاشية . وعقب اصابته بمرض التيفوس ، نقل نصف ميت الى اثينا ، حيث قضى بقية سنوات الحرب في شبه عزلة كاملة لم يصاحبه فيها الا الشعر . . وخاصة شعر الخلاص ، الذي وجد فيه القوة الوحيدة القادرة على مكافحة السلطات . وفي لحظة التحرير ، يعين مديرا لبرنامج اذاعي ، وهنا نجده ينشط في كتابة عدد من المقالات ، وترجمة بعض الاعمال عن الفرنسية .

في سنة ١٩٤٤ ، رحل اوليتيس الى باريس ، حيث اقام اربع سنوات في فندق تريانون ، بشارع فوجيرار . وهنا . . كان في انتظاره كثير من الاصدقاء : بيري ريقيروى ، اندريه بزيون ، بول الوار ، البير كامى ، تريسنتان تزارا ، بيكاسو ، شاجال . . . وكلهم رأى فيه ذلك الرجل الشديد

التملق بلغته اليونانية . الم يكن هو الذي غير اسمه الى اوليتيس Elytis لان كلمة Ellas تعنى اليونان ، و Eleni هى هيلين : الجمال والحب ، و Elpida : الامل ، و Elefteria : الحرية . وما لبثت فرنسا ان اصبحت بالنسبة للشاعر : وطنه الثاني . فنراه يترجم لكتاب فرنسيين ، بل يكتب مقالات ودراسات نقدية باللغة الفرنسية التي اصبحت يجيدها تماما .
تم اختيار اوليتيس عضوا مؤسسا في « **الجمعية العالمية لتقصاد الفن** » ، وبعدها عاد الى اليونان .

الفترة من ١٩٤٩ — ١٩٥٩ خالية تماما من نشر اي شيء . لكن الشاعر عكف خلالها على كتابة قصيدة كبرى بعنوان « Axion Esti » التي يمكن ترجمتها بـ « من الانسانية ان . . . » والتي لا يمكن ادراك ابعادها الا بمقارنتها باناشيد **ازرا باوند** Cantos .
في بداية الستينات ، شهدت اليونان حركة تجديد حقيقية . . اذ

انتهت الحرب الاهلية سنة ١٩٤٩ ، وبدأت الاصوات الديمقراطية تعلو في البلاد . وكما هو معروف ، فانه قبل اي تغيير سياسي ، يسيطر دائما جو جديد : **مقامى برازيليان ولوميدى** تصبح الملتقى الدائم لكل المثقفين التقدميين ، الذين يتربعون — حاليا — على قمة الحركة الثقافية والروحية المعاصرة في اليونان : **هنالك ميكيس وثيودوراكيس** اللذان سوف يلحسان قصائد اوليتيس . ثم **كاروزوس** ، و**تزيراكاس** ، و**ميركورى** ، و**تراروهيس** ، و**سينو بولوس** ، و**سالكوريس** ، و**سافيديس** .. وهنا يحدث ان مطربة شابة ، و**تور** ، تضع على عينيها نظارات ، وتعمل مدرسة اطفال ، تغني للعالم كله اولى اغاني اوليتيس .. انها الفنانة : **نانا موزكورى** .

خلال تلك المنتديات الثقافية ، يبدو الشاعر رصينا كعادته ، مهذبا ، انيق المظهر ، يسمع من الجميع ولا يكاد يتكلم . وكل مساء تقريبا ، يلتف حوله الادباء الشبان في مقهى **بيزانتيون** ، الذي يفتح ابوابه طيلة الـ ٢٤ ساعة ..

في سنة ١٩٦٥ ، حصل اوليتيس على اعلى جائزة من الدولة في الشعر اليوناني . وبعدها اصبح عضوا في مجلس ادارة المسرح القومي باثينا .

لكن تقلبات اخرى كانت تنتظر اليونان . في ابريل سنة ١٩٦٧ ، حلت دبابات الجيش حزب « يونان اليونانيين المسيحيين » الى السلطة . وهنا تفرقت الجماعات المثقفة ، وعاد الشاعر مرة اخرى الى باريس . وانعزل عزلة تامة بالمنزل رقم ٧ شارع **البيزون** ، والذي سيصبح ، بالنسبة اليه ، المكان المفضل للتأملات ..

وبعد عودته الى اثينا ، نشر سلسلة من المؤلفات المكتوبة باللغة الفرنسية كما قدمت له الجمهورية اليونانية منصبا في الاذاعة ، ما لبث ان استقال منه . انه دائما ضد أية سلطة تحد من طاقاته ، بما فيها السلطة البيروقراطية (روتين العمل البطيء والتكرار على نمط واحد في المكاتب الحكومية) . وهكذا فضل ان يعيش مجهولا من الناحية الرسمية ، ومتنقلا بين جزر بحر ايجه ، وشقيقته في شارع سكوفيا باثينا .

ولانه انسان متحفظ ، وشاعري الى حد ما في تصرفاته ، ومشغول دائما بتحسين وسائله التعبيرية ، فانه لم ينقطع قط عن اثاره المضايقات . لا يكاد يعرف عنه انه سعى لاي منصب من تلك المناصب القصيرة الاملد التي شغلها . كما انه لم يشترك قط في أية مظاهرة او حملة توقيعات ، كتلك التي يقوم بها الكثير من المثقفين في بلاده .. كذلك فان اي لقب (شيوعي ، يميني ، متطرف ، فوضوي ، الخ) لم يلحق بهويته الخاصة

لقد ظلت السياسة بكل الوانها تثير في نفسه الاشمئزاز !.. كل ما هنالك انه شاعر .. وكفى ! ذات يوم صرح هو نفسه بأن اسمه : اوديسوس يرمز في اللغة اليونانية الى Ulyssه عوليس ، الثالث ايدا ، والمتعلق في بحار العالم بسارية الشعر !

الشاعر واعماله :

ايجه : الارخبيل ذو الجزر الرائعة الحسن ، المصطفقة برياح الشمال التي تغطيها كل شتاء ، ورياح الجنوب التي تشويها كل صيف : تلك هي البيئة الطبيعية التي نشأ فيها اوليتيس ، وتطور احساسه بالعالم .
● مع ديوانه الاول « اتجاهات » ، استطاع الشاعر ان يسمع صوته ولم تكن ادواته في هذا المجال سوى : الشمس ، الامواج ، طيور البحر ، مراكب الصيد التي تمسحها العواصف دون ان تقتلعها من اماكنها بجوار الشاطئ ..

وراء الطبيعة الحية ، والفنائية الواضحة في الديوان كله ، يشع ويميض صاف من التصوف ، يدين العنف الكامن في طبيعة الانسان . اما الطبيعة ذاتها فانها « البلاد البعيدة — التي سوف يرحل اليها الانسان — المخلص ليقم الى الابد ... »
هناك .. حيث لا يوجد عذاب ولا زغرات !

● في ديوانه الثاني « شمس اولى » ، يصبح تعهد الكائن في الطبيعة ضرورة ، واهم الشروط لذلك : النور والبحر والحصى والعري المكتسب بريح الشرق .. امسح كل شيء ، ما عدا بسمه خالدة على وجه مضيء للابد ...

● ثم تبرز تجربة الشاعر خلال الحرب في غناء بطولي وجنائزي للضابط الساقط في البانيا .. حيث تسيطر روح الانسان المردود له اعتباره ، وتنبور رؤية الشاعر بشكل اكثر وضوحا لكل من الحياة والموت في لقاءاتهما الخالدة « اما الفاشية .. تلك العجوز التي تخفق الاطفال ، فانها تنهزم امام صربات المجهول المنتصر !

● بعد ذلك نلتقي بديوان غريب العنوان : « ست مأخذ زائد واحد .. للسماء » ويضم ثماني قصائد ، ذات استيحاء عال ، كل منها عبارة عن شعور عميق بالوعي ، ومحاولة لتأكيد شخصية الانسان اليوناني :

لقد انبت الجبس

وبيد بطيئة ، لكنها ثابتة ، طلبت بنفسى الجدران الاربعة لمستقبلي ..

● خلال عزلة صادقة ، فرضها الشاعر على نفسه ، راح يكتب على مدى عشر سنوات ، تصيدته الكبرى «**لبن الانسانية ان ..**» وهي عبارة عن غنائية متعددة الاصوات ، متعددة المقاطع ، لكنها مرتبطة فيما بينها بوحدة داخلية .. انها قصيدة تحدد المراحل المختلفة لتطور شعب بكامله في ثوب منسوج من التجارب الفردية ، وتمثل الخطوط الاساسية فيها من لغات الهلينية كلها ، لغة الوعي واللاوعي ، لغة الكتب المقدسة المكتوبة باليونانية القديمة والتي تتناغم مع اللاهوت الصارم ، والطبيعة ، والجنس ، وذكاء المقولات الفلسفية ، وسذاجة الاشياء اليومية .. كل هذا في مزيج رائع ، ينزع دائها الى محاولة الربط بين الكائن والكلية :

في البدء .. كان الضوء ، واللحظة الاولى ، حيث الشفاه ، مازالت بعد صلصالية تذوق ، لأول مرة ، اشياء العالم ..

لقد قال احد النقاد ان اوليتيس قد شجن في هذا النص الشعري تطهير المسرح الاغريقي القديم ، بالاضافة الى تطهير الجموع المسيحية . والواقع انه من رؤية الانسان يتمزق على الارض ، قد نسج ، مثل العنكبوت ، طريقة في السماء !
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

● اما قصيدة شمس مسيطرة ، فقد كتبت لتلحن .. وهي تقوم على الفولكلور الشعبي ، والافكار السائدة ، المنتشرة في اليونان او في العالم الطبيعي .. وينفذ اخراجها في التلفزيون ، اكتسبت طابعاً شبه عالمي .

● ثاني بعد ذلك قصائد : **الشجرة الفاتنة ، والحسن الرابع عشر** لتؤكد على دور التجربة الشخصية ، ثم **الطغراء ، ونهايات الحب اللتين** ظهرتا ١٩٧٢ ، لتعلننا بصورة اقوى ارتباط الشاعر بالكلمة كاداة وغاية في نفس الوقت . وهاتان القصيدتان عبارة عن محاولة لاستبطان الرغبة ، والطمح الناتجة عن العمل الشعري .

يقول ريفيه كار : « ان القصيدة عبارة عن الحب النانج عن رغبة ، لا تخرج ابداً عن كونها كذلك » وهذا يصدق الى حد كبير على اشعار اوليتيس .
لم يبحث اوليتيس قط عن الجزئيات . لكن عمله يؤكد وجود **اخلاق دائمة** ، كما يضع امام العالم المعاصر عدة معالم من اهمها : **الوفاء**

للإنسان ؛ هذا الباحث دائما عن تكتيك جديد ، في طبيعة يجب ان يعايش فيها ما هو مطلق ...

● في هذا الاتجاه ، ظهر آخر أعمال اوليتيس ماري نيفيل سنة ١٩٧٨ عبارة عن حوار متقطع من جوامع الكلم بين الشاعر وقتاة — امرأة ، متمردة القتها العاصفة على أحوال العالم الحديث .. وهنا تبرز عملية استبطان الشاعر للشباب والشعر : الوجهين الحقيقيين في حياة البشر المعاصرة .

● قام الملحنون اليونانيون بتنفيذ خمس عشرة اسطوانة ، تحلل قصائد اوليتيس وكذلك ترجماته لبعض قصائد لوركا ، وبريخت . كما توجد اسطوانتان باليونانية يقرأ فيها الشاعر بصوته بعض قصائده .

(ولا يسعني في هذا الصدد الا ان اكرر — مرة اخرى — اهمية تسجيل الشعر العربي المعاصر بصوات اصحابه على اسطوانات او اشربة . فان هذا ، بالإضافة الى ادائه دورا جليلا في الحفاظ على طرازه وحيويته، سوف يساعد على انتشاره وحسن قبوله لدى الجماهير . ومن يدري ، فربما ساعد ايضا على منافسة الاغنية العربية المعاصرة التي مازالت تتسلى بالمشاعر السطحية ، في لغة شبه ميتة !)

الشاعر ولفته :

عندما سئل اوليتيس عن أسلوبه اجاب : أنا الكلمة . وهذا بالنسبة اليه يعني ان براءة الشاعر ، بما هو شاعر . تسبق اي تساؤل عن الانسان .

كذلك فانه الشاعر الأوروبي الوحيد الذي يجدد من خلال البراءة مفهوما اخلاقيا عاما .. حيث يرى فيها التعبير البدائي والواضح لرفض الخضوع امام اية سلطة . ان الرفض اولى خطوات الثورة . وبما ان هذه الاخيرة لا يرضيها الا ان تظل دائما مستمرة ، فانه لا يوجد الا فعل واحد .. هو فعل الكلمة : الكلمة كعامل مؤثر .. الكلمة كفاعل .. لكن مثل هذا الكلام الفاعل لا يتصوره اوليتيس الا يونانيا ، بالمعنى الذي اعطاه له الفيلسوف الالماني هيدجر .. أي انه لا يمكن ان نمارس الفكر اليوناني الا باليونانية . والواقع ان هذا التصور يعتمد على علاقة الكائن بالعالم ، ويضرب بجذوره في عالم الفلاسفة الاغريق الذين سبقوا سقراط .. يقول اوليتيس في قصيدته « Axion Esti » السالفة الذكر :

اعطيت لي اللغة يونانية ..

والبيت فقيرا ..

على رمال هومر ..

وفي قصيدة اخرى :
— انني اعلم ان هذا كله لا يساوي شيئا !
وان اللغة التي اتحدثها
ليست بذات ايجابية !

وهكذا فان الحديث بهذه اللغة لا ينحصر في المفهوم الضيق للدولة المعاصرة . ان اليونان التي ينشدها الشاعر هي يونان هولديرلان ورامبو ، وطن بدون قومية ، ارض للشعراء ، وليس دولة . هذا الوطن المتخيل لا يمكن ان « يتحقق » في ارض اليونان الحالية ، الا باعتبارها ارضا لكل انسان متجدد في هويته !
كذلك فان سياسة الشاعر تظهر من خلال لغة هي نفسها ضد اية سلطة :

— الوطن لوحة ذات طبقات ، مرصوص بعضها فوق بعض
فرنسيون او سلاف ، واذا حاولت
اصلاحه ، فانك ستذهب مباشرة الى السجن
وتصوغ بنفسك دفاعك عن نفسك
امام كتلة من السلطات
تحطم سلطتك الخاصة
كما لو كانت كوارث طبيعية !

ومع ذلك ، فان اوليتيس يستمر في الاصلاح بسلاح الكلمة ، مصارعا عوالم غاية في الشراسة والعنف . ومن العجيب انه على الرغم من تفوقها المادي الرهيب ، فان اكثر ما يقض مضجعا هي الكلمة !
عندما علم اوليتيس بأنه حصل على جائزة نوبل ، كان تعليقه في التلفزيون الفرنسي ، بكل تواضع : « انني اعلم جيدا انهم انما يكرمون ، من خلالي ، الشعر اليوناني كله . . ذلك الشعر الذي اعطى للانسانية شحنة قوية من الزاد الروحي المتجدد عبر العصور » .

حامد طاهر — باريس



الأدب الأنعزالي في مصر

أحمد عبد الرحمن

<http://Archivebeta.Sakhril.com>
وفد الأبناء المصريين التقدّمين بالخارج

في أوائل عشرينات هذا القرن نشر توفيق الحكيم مسرحيته الأولى « أهل الكهف » ولاقت المسرحية ترحيباً كبيراً على المستوى الأدبي إذ لم يطبع منها حينذاك إلا بضعة مئات وقدمه طه حسين إلى قرائه تقديمًا جيدًا . وكانت المسرحية تتحدث عن أهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة عام ثم عادوا إلى الحياة من جديد . وكان موضوع المسرحية هو استحالة القفز على الزمان ، ولهذا لم يتمكن أهل الكهف من الاستمرار في الحياة في ظروف مغايرة للظروف التي عاشوا فيها قبل نومهم الطويل .

ولقد قيل الكثير حول تفسير هذه المسرحية ، ولكن يظل الشيء البارز انها تقول بوضوح ان الماضي لا يصلح للحاضر حتى لو بدا لنا بعض اوجه الشبه بينهما .

وهي مقولة صحيحة في حد ذاتها الا انها كانت توأكب اتجاهها من الفكر المصري حينذاك يريد ان ينسلخ عن الماضي ليلحق بالعصر الحاضر . كان المطروح بقوة هو تطويع التراث للظروف الحاضرة ، وكان يقصد بالتراث الشريعة الاسلامية بصفة خاصة وتفرعاتها المختلفة . قام بهذه المحاولة طليعة من الادباء والمفكرين بدءا من رفاة الطهطاوي مروراً بجمال الدين الأفغاني ثم وقفا عند محمد عبده الذي انجز في هذا المجال انجازا ضخما واثرا تأثيرا واسع النطاق في الوطن العربي .

وبدا هذا الطرح متصلا بفكرة هامة هي خصوصية الحضارة العربية وقدرتها على مطاولة الحضارة الاوربية الحديثة .

ومن الممكن ان نفهم ضمنا الرغبة الكامنة وراء هذا الاتجاه في الاستقلال عن اوربا ومقاومة محاولات الاحتواء التي كانت قائمة على قدم وساق . وقد انتهى الصراع فعلا الى الاختلال العسكري واحداث تغييرات جهرية في نظم التربية والتعليم وفي الثقافة العامة .

وقبل مسرحية « اهل الكهف » صدر كتاب احدث ضجة كبرى للاستاذ علي عبدالرزاق هو « الاسلام واصول الحكم » وكان هذا الكتاب يناقش موضوع الخلافة في الاساس . الا انه كاتجاه كان يعزل الشريعة عن الامور الدنيوية ، وكان يتنادي بالليبرالية الغربية . كان يدعو الى الانعتاق من أسر الماضي والتفاعل مع العصر الحديث . وكان العصر الحديث يعني النظم الغربية في نشاطاتها المختلفة .

سوف نجد هذا في كتابات لطفي السيد ايضا . اذ كانت هذه المجموعة مترابطة وكان اجتهداها ان الاستعمار البريطاني يستطيع ان يقوم باصلاحات الضرورية وان ينقل مصر الى العصر الحديث . وكان

هذا الاجتهاد يؤدي الى ضرورة انسلاخ مصر عن كل ما يحيط بها من عالم متخلف وان يحرقها بصفة خاصة من التراث الاستبدادي الرجعي الذي يتمثل في المفاهيم الشائعة والمنسوبة الى الدين .

وفي هذا الاطار كتب طه حسين كتابه « الشعر الجاهلي » والذي اثار ضجة مثيرة للدهشة . ذلك ان معاصريه قد فهموا انه يدعو الى اعادة فحص التراث الادبي ، بل الى التشكيك فيما يملكون من تراث . مما يدل على مدى التوتر الذي كان يعيشه المجتمع وكثرة الشكوك والريب التي كانت تسود الحركة الثقافية .

على ان طه حسين بعد هذا الكتاب بمدة طويلة ، في سنة ١٩٣٨ ، كتب كتابه الهام « مستقبل الثقافة في مصر » وفي هذا الكتاب أعلن بشكل واضح ان مصر تنتمي الى حضارة البحر المتوسط وان حضارتها اوروبية في واقع الامر . وكان الكتاب يقدم تصورا لنظم التعليم والثقافة يستهدف « ان نسير سيرة الاوربيين ونسلك طريقهم لتكون لهم اندادا ولتكون لهم شركاء في الحضارة » خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها ويكره ، وما يحمد فيها وما يعاب « على حد ما جاء في هذا النص الحرفي من كتابه المذكور .

لقد بدأ هذا الاتجاه يأخذ شكلا متميزا على يدي لطفي السيد ، وان كانت بدوره موجودة الى ما قبل هذا . ولعلنا نجد اول ملمح لها عند الشيخ حسن العطار معاصر محمد علي واستاذ رفاة الطيطاوي والذي لعب دورا هاما ما زال مجهولا في تاريخ الثقافة والسياسة في مصر .

كان للشيخ حسن العطار دور بارز في فترة الاحتلال البونابرتي لمصر ، وكان من الذين اطلعوا على المجمع العلمي الذي انشأه الفرنسيون ولعله هو الذي صحب الشيخ الجبرتي الى بيت السناري بالقاهرة حيث شاهد لأول مرة مسحوق الديناميت وفجره امامه بمطرقة صغيرة احد العلماء الشبان المازحين .

والشيخ حسن العطار هو الذي حمل الى كبار المشايخ والعلماء العريضة التي تطالب بتنصيب محمد علي واليا على مصر . ويروي الشيخ الجبرتي جداله الحاد مع الشيخ العطار حول هذه العريضة ورفضه التوقيع عليها . ومع ذلك فقد حصل العطار على توقيع غالبية العلماء . وسوف يظل هذا الرجل الهام مؤثرا في الحياة السياسية والثقافية حتى بعد ان انقلب محمد علي على عمر مكرم وعلى الآخرين من كبار القادة الشعبيين ، وكان نفوذه قويا حتى ان ترشيحه رفاعة الطهطاوي للسفر مع بعثة علمية الى فرنسا لم يلق اي اعتراض .

ان قصة العطار هنا تشير الى قصدين وهو ان الاعجاب بالحضارة المتفوقة شيء طبيعي ، وان عددا من الشخصيات الهامة في تاريخ الثقافة العربية قد تأثر بهذه الحضارة وتعلمت ان تمضي الحياة في بلاده على نمطها . ولكنها ايضا تشير الى ان الفرنسيين تعاملوا مع شخصيات عديدة واستطاعوا ان يستميلوا اليهم من كان لديه الاستعداد .

ولقد انتقل الفرنسيون الى مصر والى اقطار عربية اخرى بالجيوش والاساطيل وبالعلماء ورجال الفكر ايضا . اما بعد ذلك فان المصريين وسائر العرب قد انتقلوا الى الفرنسيين والى غيرهم من الاوربيين .

ولا شك ان الانتقال الاخير انتقال طبيعي وبقدر ما كانت مصر تجني منه ثمارا طيبة ، كانت اوربا ايضا تجني منه بعض الثمار .

وحينما كانت السفارة البريطانية بالقاهرة تحكم مصر فاننا نكون من السداجة حين لا نفكر قليلا او كثيرا في انها كانت تجد وسائل متعددة لتشجيع هذا الاتجاه الفكري او ذاك . وانها كانت تتدخل الى حد ما في صياغة اتجاهات الراي العام .

في هذه الفترة نشط التيار الجديد الذي بدأ بقيادة لطفي السيد ، مؤسسا جريدة السياسة ، عاملا بكل قوة على تحديث مصر ، داعيا الى انشاء الجامعة المصرية ، مطالباً بالحكم الذاتي وبالاعتماد على المثقفين

المصريين باعنا للوطنية المصرية بمفهوم جديد ، أهم ما فيه هو الهجوم على الخلافة العثمانية ، منددا بكل الآثار السلبية القديمة والناجمة عن التراث . ولذلك اتجه لطفي السيد الى المصادر الأصلية التي اعتقد ان أوروبا قد نهلت فيها فترجم الى العربية بعض كتب أرسطو ، الأمر الذي ذكرنا بعد ذلك باهتمام طه حسين بترجمة بعض المسرحيات اليونانية القديمة والحديث عن ذلك الأدب في كتاب كامل ظل مقررا على طلبة المدارس الثانوية لفترة طويلة فضلا عن عنايته الشديدة بتدريس اللغة اليونانية واللاتينية في كلية الآداب أثناء عمادته لها .

والحق ان هذا التيار لم يكن شعبيا على الرغم مما فيه من نزعات نحو المعاصرة والتحديث ، ذلك انه من اهتمامه بالحضارة الغربية الحديثة كاد ان يخلع كل شيء عن مصر ، وان يسلم بوصاية الاحتلال على البلاد . وها نحن قد راينا الدكتور طه حسين يقبل على الحضارة الغربية بخيرها وشرها بما يعاب فيها وبما لا يعاب . مما جعلنا نعتقد انه لم يسع الا الى تقليد شامل ، لم يفكر حتى في عملية انتخاب ، لم يفكر في انتقاد ولم يحاول الوصول الى صياغة جديدة تستفيد من حضارة الغرب بما يوافق الظروف الموضوعية للواقع الاجتماعي المصري . ونحن لا نكاد نجد من كتابات استاذة لطفي السيد أي طموح لصياغة مستقلة .

واذا عدنا الى الجبرتي والقطار فاننا سنجد نمطين من الفكر . الاول ويمثله الجبرتي كان ذا رؤية محافظة ومع ذلك كان موقفه من الاحتلال الفرنسي عدائيا واضحا ، وكان ينظر الى الحكم العثماني والولاية المملوكية على انها جزء من كل هو العالم الاسلامي ، وكان ما يقدمه الفقه الاسلامي من نظم فكرية لتحقيق العدالة والتقدم مقنعا بالنسبة له ، والابتعاد عن التعاليم الصحيحة للشريعة . وعندما طلب القطار توقيعه على عريضة بتنصيب محمد علي كان متصورا ان هناك استدراجا للابتعاد عن ذلك الاطار والدخول في دوامة أخرى تتبع الفرنسيين . ولم يكن الجبرتي

منقلباً ولا ضيق الافق ولكنه كان يتحسب من المستقبل وان كان فهمه للحظة التاريخية ودلالات الاحداث غير دقيق .

هذا الخط الفكري سوف نجده في التطورات القادمة . اما خط العطار فكان اقل تحفظاً ، بل لعله كان متحمساً للنمط الاوربي . وكان الرجل من هذا الصنف المحب للحياة ، بل كان يعجبه الجانب الماجن منها احياناً ، وقد ادرك بذلك ان السلطان سيظل في حوزة القوة الاوربية الجديدة والتي رآها عن قرب طوال ثلاث سنوات . وكان العطار يستطيع ان يجري مقارنة بين الولاة الممالك والاثراك وبين الفرنسيين ، وبالتأكيد كانت كفة الاخرين هي الراجحة . ولعله قد عمل جاهداً على تنصيب محمد علي الذي لم يكن يخفي هو الآخر اعجابه بالاوربيين وبالفرنسيين بصفة خاصة .

ومع ان جلاء الفرنسيين عن مصر تم بتدخل من الانجليز لصالح الحكم العثماني المشاوي ، الا اننا لا يمكن ان نتصور ان الصراع بين انجلترا وفرنسا لوراثة الولايات العثمانية قد انتهى بمجرد الجلاء .. لا بد ان القوتين كانتا تجدان طريقاً داخل القوى الاجتماعية والسياسية المصرية .

على ان المؤكد ان القوى الوطنية المصرية استفادت من هذا الصراع ، وكان تنصيب محمد علي احدى ضرباتها الكبرى ، اذ كانت تسعى بغير شك الى شيء من الاستقلال ، والى مشاركة ايجابية في ادارة دفة الحكم في البلاد .

وكان الشيخ العطار الذي لم يخف اعجابه بالنمط الفرنسي ، والذي قبل ايضا التعاون مع مثليه ، يلعب دوراً آخر ، ويرى رؤية مخالفة للشيخ الجبرتي .. كان يرى ان الفساد قد دب في الدولة العلية وانه لا بد من اقامة مركز جديد بمساعدة الفرنسيين وبقيادة رجل سياسي وعسكري

داهية مثل محمد علي ، وليس من المستبعد انه فكر في ان الاصلاح لن يتم بمجرد تطهير الفساد ، بل بتغيير النظم نفسها ، بما فيها بعض النظم الموروثة والتي كانت الى عهده تتمتع بشيء من القداسة لشبهة انتماؤها الى الدين .

من الممكن القول ان الجبرتي كان يمثل النزعة الاسلامية المحافظة بينما كان العطار يمثل نزعة التحديث وادخال نظم بكاملها الى الحياة الاجتماعية والسياسية مغايرة لما هو متعارف عليه .

ولقد امتد خط الجبرتي الى سلالة من الذين يريدون تطويع الشريعة للعصر الحديث للاستفادة من كل الانجازات العصرية التي لا يمكن لاحد ان ينكرها مهما يبلغ به التعصب او ضيق الافق . بينما امتد خط العطار الى السلالة التي وصلت الى نهاية الخط حيث طالبت بالانسلاخ التام عن الماضي ونقل صورة الحياة المدنية الغربية . فعند نقطة معينة . عند محمد عبده الذي كان وما يزال اكبر الانجازات الفكرية في الثقافة العربية الحديثة هو نقطة الالتقاء قبل ان يتفرط الخطان مرة أخرى ولكن بشكل اكثر حدة . وكلاهما خرج مدعيا انه يصدر عن محمد عبده . كان لطفي السيد نفسه احد تلاميذ الشيخ ، وكذلك كان رشيد رضا . من الاول امتد خط المصرية بما يحمله من رغبة جامحة الى التاوروب وبالتالي الى الانعزال عن الامة العربية والثاني امتدت التيارات الدينية المختلفة .

وحتى هذه اللحظة كانت لافتات الصراع تحمل عناوين تستحق التأمل . فالجانب الديني كان يدور حول فكرة الجامعة الاسلامية ، بينما الجانب العلماني يدور حول فكرة القومية المصرية .

كنا نجد عند محمد عبده نفسا عربيا ، وكنا نجده ايضا عند رشيد رضا ، ولكن فكرة الجامعة الاسلامية كانت تغلب عليهما . اما عند خلفائهما فقد اختلف النفس العربي بالمعنى القومي تماما .

وبادىء ذي بدء فان اللافتة الاخرى كانت تتحدث عن قومية مصرية وكانت تستند في ذلك الى اسانيد مختلفة ومن الصعب ان نلمس نفسا عربيا تحت هذه اللافتة الا في الايام الاخيرة من حياة طه حسين وحينما انتقل الى صفوف الوفد واصبح يشكل تيارا راديكاليا بالنسبة لمدرسة لطفي السيد .

وكان نفس الشيء قد حدث في لبنان ووجد هذا القطر من يقولون بقومية لبنانية ، والى حد ما وجد من يقول ايضا بقومية سورية . اما الذين تنهبوا للقومية العربية فكانوا يستبعدون من اطار العروبة مصر ، كما يستبعدون المغرب العربي .

والواقع ان انهيار الامبراطورية العثمانية التدريجي حفز الاقوام المختلفة التي كانت تنضوي تحت لوائها الى البحث عن انتماء آخر . كانت الامبراطورية تجمع قوميات متعددة تحت راية الاسلام ، وكان غير المسلمين يعيشون في اطار هذه الدولة الكبرى وفي اطار الثقافة الاسلامية ولم يعد هناك توتر حاسم او قلق يخض العقيدة . اما عند الانهيار فقد نشأ فراغ كبير ، واصبح على القوميات المختلفة ان تجد غطاء وان تبحث عن جلرها الانتمائي وهكذا انفردت من عقد الدولة قومية عربية وقومية مصرية وقومية تركية وقومية فارسية وكردية وارمنية .

هذا هو التصور الاوربي ومخططة ايضا ، اذ كان تفتت الدولة الكبرى احد الاهداف الرئيسية ، ومع انه ليس صحيحا ان القوميات الاوربية نتجت عن انقراض النظام البابوي الذي بدا انهياره منذ وقت مبكر ، بل على العكس ان الحركات القومية الاوربية كانت حركات وحدوية وليس مثلها التقليدي وحدة ايطاليا ووحدة المانيا فحسب بل قبل ذلك الوحدات التي نشأت من مقاطعات متفرقة في سائر اوربا الغربية ، في انجلترا وفي فرنسا وفي اسبانيا وفي غيرها من الدول .

ومن الطبيعي ان تسعى الطبقات القادرة الى توحيد اكبر ساحة

ممكنة قادرة على التجمع والاتحاد حتى يتسع مجال النشاط الاقتصادي والسياسي دون حدود او حواجز .

اما بالنسبة للدولة العثمانية فكان التفتيت هو العنصر المهيمن وكانت شروط الوحدة تنكمش ليصبح شرطها الوحيد الشرط العرقي ، وهو الامر الذي شجعت عليه الدول الاستعمارية الحديثة بالنسبة للولايات العثمانية . وفي هذا السبيل تمت ادعاءات كثيرة . وفي مقدمة ذلك الادعاء بقومية مصرية .

وربما لم يكن هناك ارتباط بين الاكتشافات الاثريّة في مصر والعراق وسوريا الكبرى وغيرها من الدول العربية وبين الابتعاد عن القومية العربية . ولكن المؤكد ان رجال السياسة الغربيين استفادوا من هذا في تزكية روح الفرقة بخلق انتماءات متعارضة تستند الى اصول موغلة في القدم . وهكذا اصبحت الحضارة الفرعونية هي اصل المصرية ، وكذلك الامر بالنسبة لسومر وآشور وبابل في العراق والحيتية والفينيقيين في الشام . وما اكش الكتابات التي ظهرت في مصر لتذكي الفرعونية . وعلى كل حال ليس غريبا على الشعب الذي يعاني من الاحتلال الاجنبي والعجز الحاضر ان يلجأ الى ماض مشرق مليء بالعزة ، انه عملية دفاعية تتجه اليها المجتمعات لتلتمس منها قوة لمقاومة الاغتصاب المعاصر ، وقد تلهفت الحركة الوطنية المصرية على انباء الاكتشافات والتقطت الطعم بسهولة ، فاذا كان عمر الدولة سبعة آلاف عام فان الحقبة الاسلامية فيه لانيد عن الف وبضعة قرون قليلة . . وهكذا يصبح الاسلام والذي هو مصدر العروبة شيئا عارضا وبالتالي فان تأثيره لن يتعدى اطار الدين ، وتبقى لمصر خصائصها العرقية مثلها في ذلك مثل الاتراك او الفرس او غيرهم من الاقوام الاخرى .

واتجه الادب في مصر من خلال التيار الذي نتحدث عنه الى احياء ذكرى الفرعونية باعتبارها الاصل المصري الصحيح . ولم يكن غريبا ان

يكون أول عمل أدبي يقوم به نجيب محفوظ هو ترجمة كتاب عن مصر القديمة وأول ثلاث روايات عن الفترة الفرعونية ، رادوبيس وكفاح طيبة وعبت الاقدار . كان هذا مدخل نجيب محفوظ الى الادب الروائي . وفي نفس الوقت دخل صديقه وزميله عادل كامل عالم الادب بقصة « ملك بن شعاع » وهي قصة تحوي حياة اخناتون ذلك الملك النبي صاحب السيرة الرومانسية الأخاذة . ومع ان قصة « عودة الروح » تعالج موضوعا معاصرا الا انها كانت ممثلة بالروح الفرعونية .

اما الدراسات الاسلامية العديدة التي ظهرت في الربع الاول من القرن العشرين وتتابعت بعد ذلك على يدي الدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ العقاد والدكتور طه حسين فانها في الواقع كانت محاولة لنقل التراث الاسلامي من مجاله الديني الى المجال العقلاني ، وكان اكثرها يميل الى التحقيق ، كانه اعادة البحث في قضية كان قد حكم بحفظها ووضعت اضبارتها في مخازن عتيقة . واذكر ان الاستاذ العقاد قال في احد احاديثه المنشورة واصفا كتابات طه حسين وهيكل بان الاول كان يقوم بعمل اثبات حالة قانوني اما الثاني فكان يقوم بعملية جرد قانونية والتعبير ان من المصطلحات القانونية الشائعة . . اما العقاد فكان يظن انه يقوم بدراسة في سيكلوجية البطولة من خلال عرضه للتاريخ العربي ، ولذلك كانت أعماله تقوم على سيرة مباشرة ، على عبقريّة شخصية من الشخصيات . ومع ان هذه الكتابات الاسلامية لم يكن دافعها اثبات العروبة أو تأصيلها لدى القراء المصريين . . الا ان احد حتى من غلاة العزلة لم يستطع ان يخطي وجدانه من النزعة العروبية ، وهذا يشكل تركيبا معقدا في نفوس المصريين ، وسوف ينعكس دائما على الادب العربي المصري حتى لدى اكثر الكتاب انمزالا . حقا ان الكتابات الادبية الحديثة كانت تهدف الى تخليص التفكير الديني من الخرافات والعودة به الى العقل النقي ، ولكنها في نفس الوقت كانت تفصح انه لا يمكن لاية ثقافة مصرية ان تقوم بمعزل عن الثقافة

العربية . ولم يستطع توفيق الحكيم أن ينجو من العدوى فأخرج كتابه عن محمد وهو كتاب من كتب السيرة النبوية .

وعلى كل حال فإن الحس العربي عاد من جديد بشكل قوي في الأربعينات ، إذ كان الوضع قد تغير ، كانت قضية الخلافة العثمانية قد انتهت وأعلنت تركيا منذ زمن بعيد أنها دولة تنتمي إلى أوربا وإنها علمانية وغيرت حروف الكتابة إلى الحروف اللاتينية وهو أمر ذو بال ينبغي أن نضعه في الاعتبار بالنسبة للتأثير على الفكر والأدب في مصر أيام التحول الذي قام به كمال أتاتورك وأصبح اعتماد الحركة الوطنية على تركيا كحليف ضد الاحتلال البريطاني غير وارد ، كما أن لعبة الجامعة الإسلامية فقدت بريقها ، والتفتت الحركة الوطنية المصرية لتجد أنها جزء من قومية أوسع ، وإنها وقعت في أحابيل كثيرة . إذ كانت لغة الثقافة هي اللغة العربية وكان التراث الحي والمتفاعل هو ذلك التراث العربي ، وإن أوربا ذاتها لاتعترف بأية روابط بينها وبين الحضارة المصرية وإن التأثير الثقافي الواسع لمدينة الإسكندرية في العصور الزاهرة القديمة كانت له ظروفه الخاصة . كما أن المواجهة مع الاستعمار تتطلب نوعا من التضامن العربي ، وكانت فكرة الجامعة العربية تغييرا عن النزوع القومي داخل مصر ولم تكن فكرة بريطانية مفرغة من أي محتوى ، بل لعلها كانت محاولة لامتناس النزوع القومي العربي في هذا الشكل التنظيمي .

وهكذا بدأ الأدب العربي في مصر بعيد النظر في التراث وخاصة المسرح حيث ظهرت موضوعات عديدة للكتاب مأخوذة جميعها من التراث . ونشطت المجلات الثقافية في المجال العربي ، حيث كانت مجلة الرسالة ومجلة الثقافة تعرضان كتابات عربية للكتاب العرب المصريين وللعرب من الأقطار الأخرى .

وحينما انتهت الحرب العالمية الثانية كان الترابط بين الحركات الوطنية قد أصبح ترابطا شعبيا وأصبح الشارع العربي واحدا في كل مكان . وعندما وقعت معاهدة صدقي بيغن وجبر بيغن كانت المظاهرات في

شوارع بغداد وشوارع القاهرة في وقت واحد ، كما كان النضال في المغرب يلقي صدى قويا في الشارع المصري وفي الاجهزة الاعلامية . وكان الملك محمد الخامس بطلا قوميا على المستوى العربي . وكان النضال السوري جزءا من النضال العربي في الشارع المصري . وما ان قامت ثورة ٢٣ يوليو حتى كان الحس القومي العربي قد وصل الى مداه ودون جهد كبير من هذه الثورة . وهكذا انفجرت الثورات الشعبية في الساحة العربية لتعزز الحس القومي وكانت الثورة الجزائرية هي الجذوة التي اذكت المشاعر القومية اذ ساهم فيها العرب في كل مكان تقريبا ، وكان اسهام مصر فيها كبيرا بصفة خاصة مما فجر العواطف القومية تفجيرا كشف عن ان كل محاولات التفكير الانعزالي السابقة كانت عارضة وكانت من قبيل ردود الفعل ولا تمت الى الجذور العميقة للوجدان المصري .

في هذه الفترة امتلا المسرح بقضايا التحرير الجزائرية وبموضوعات عن الانتماء العربي . كانت هناك مسرحية عن جميلة بوحرير للشرقاوي وكان له ايضا الفتي مهران وكانت لالقرند فرج مسرحيات سليمان الحلبي وحلاق بغداد وعلي جناح التبريزي والوزير سالم الى جانب المسرحيات الاخرى التي كانت تهتم بالموضوعات الاجتماعية المصرية دون ان تنطوي على اي فكر انعزالي .

كل هذا النشاط الادبي المفاجيء ، وهذا الاندفاع العربي العنيف في الثقافة المصرية والشارع المصري لم يتوقف احد ليتساءل لماذا ، وكيف ؟ ان الدعوات الانعزالية القديمة لم يكدها خبرها يجف ، وما زال اصحابها احياء .

لعلنا لم نقف هذه الوقفة من قبل ولم نطرح على انفسنا هذا السؤال . . كان الجواب بديهيا ولم يكن يحتاج الى تساؤل . اما الآن فالوضع مختلف .

لقد أصبح واضحاً أنه كلما عرفت مصر مدأ ثوريا .. كلما تحررت
الارادة المصرية توجهت وجهتها الطبيعية ، الوجهة العربية .. ومهما يكن
نوع الحكومة او حتى وضع قيادتها عرقيا او ثقافيا فان مصر تقود
العمل السياسي الى الوحدة العربية .. حدث هذا أيام محمد علي
حتى ان ابنه القائد ابراهيم كان يعطي تصريحات في مقابلاته الصحفية مع
الصحافة الاجنبية بأنه عربي مصري وكان يقول ببساطة انني جئت مصر
وانا صبي صغير ولم اعرف الا مصريتي وعروبتني . وكان يقول بصريح
العبارة رداً على اسئلة هؤلاء الصحفيين .. لن اتوقف في تحركي العسكري
الا حيث يتوقف اللسان العربي .

وفي مرحلة ناصجة من مراحل ثورة ٢٣ يوليو كان مضمونها العربي
بارزا حتى تحققت الوحدة السورية المصرية .. وكانت نقطة البداية
لنضال واسع المدى على كل الساحة العربية ..

والآن .. ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

هذه الموجة الجديدة من الأدب الانعزالي .. تكاد نفس الاسماء
القديمة تعود من جديد . هذا هو الدكتور حسين فوزي والذي كان
اديبا من نوع خاص . وكان ممثلاً بحماسة غير طبيعية للثقافة الاوربية
ولم تلتفت الى العنصر الرجعي الكامن وراء هذا التحمس الا بعد فترة
طويلة من اختبائه الغريب خلف عباءة تقدم كاذبة .. كان يكتب بالحاح
عن عظمة اوربا ، كانت له بعض كتابات سياحية اخرجها في كتاب تحت
عنوان سندباد عصري . ثم اخرج كتابا آخر اسماء سندباد مصري . كان
الكتاب الاول جولة في اوربا اما الكتاب الثاني فكان جولة في التاريخ القديم
وكان يحاول اثبات صحة القومية المصرية كشيء مستقل . ووجه الريبة
في هذا الكتاب انه صدر في عنفوان الانفعال القومي العربي لدى المصريين
فجاء كما لو كان رداً عليه او كبحا له .. وهو كتاب مر مرور الكرام

ولم يعأ به أحد ، وكان ضعيف الحجة رغم محاولة إثارة النزعة الشوفينية عند المصريين .

وكانت الحركة الثقافية المصرية قادرة على استيعاب أصوات عديدة ومنها صوت هذا الرجل الذي لم يكن يشغل الناس كثيرا ، كما كانت قادرة على استيعاب كتابات رجل آخر هو لويس عوض لعب هو الآخر دورا محدودا في تاريخ الثقافة المصرية ، اذ كان واسطة بين القارئ العربي وبين الثقافة الغربية .. حاول ان يقدم انجازات في النقد التطبيقي فكان شخصا وغير منهجي .. اما محاولاته في الابداع فكانت للأسف فاشلة ، وكانت لديه حساسية مريبة ضد فكرة عروبة مصر .. ولم تكن نذري لماذا يتأرجح بين اليمين واليسار ، بين التقدم والتخلف ، الا حينما تغيرت الأوضاع في مصر فاذا به يدعو نفس الدعوة القديمة ، وتظهر كراهيته الحقيقية للثورة والتقدم .. وهو ليس الا ليبرالي مصري يعيش على هامش الثقافة الغربية ويعتبر ان الملكية الخاصة اهم اركان الديمقراطية .

ربما كان لويس عوض أكثر ذكاء من حسين فوزي وهو الى حد ما لمستة الأفكار الاشتراكية ، ولكنه كان داعية الى هجر اللغة العربية ، وكتب مذكرات طالب بمئة باللهجة الدارجة المصرية .. كما هاجم بعنف الشعر العمودي مما أثار الدهشة ، فقد يكون الشعر الحر ابداعا عظيما ، وقد يكون اطار الشعر العمودي أصبح باليا .. كل هذه الآراء من الممكن ان تناقش وان تكون صحيحة في هذا الجانب او ذاك ، اما ان ينطلق الرأي في شكل عدائي صاحب فهذا هو الامر الذي اثار انتباه خصوم لويس عوض في الرأي .

اما حسين فوزي فلم يكن في احسن الاحوال الا رجلا خافت الصوت ضعيف التأثير من ذلك الجيل القديم الذي لم يلمع في الحياة الادبية .. كان له ولع بالموسيقى الغربية الكلاسيكية ، وكان المبشر بالنموذج الغربي ، وكان ايضا احد الذين دعوا في الثلاثينات الى الجامعة العبرية في القدس

وقبل الدعوة . ومهما يكن من أمر فإن احدا لا يستطيع ان يدعي ان ذهابه الى اسرائيل الآن والقاء عدة محاضرات في حيفا كان شيئا متوقعا . فهو نفسه كان متحمسا جدا للقضاء على اسرائيل ، وكان يدعي انه يشير نقاشات حادة لتوضيح الفكرة العربية بشأن الاغتصاب الصهيوني ووجود اسرائيل كجسم ناتئ وشاذ في الجسم العربي .

وقبول حسين فوزي للدعوة الاسرائيلية الى الحد الذي يلقي فيه محاضرات ينسجم على كل حال مع الخط القديم ولكن في ظروف مختلفة فاذا كانت دعوة لطفي السيد الى الحدثة والمعاصرة والاعتماد على الانجليز في اجراء الاصلاحات المطلوبة من الممكن ان تكون رابا مفلوطا . . ومن الممكن ان تستند الى بعض الحجج حيث كانت الحركة الوطنية المصرية مضروبة ، وحيث كانت الدولة العثمانية ينخر فيها السوس وكان النموذج الاسلامي المتخيل في الذهن حينذاك مليئا بالسلبيات . . فان الذهاب الى اسرائيل واللقاء محاضرات ثقافية على الاسرائيليين في حيفا . . في هذه الظروف مسألة اخرى . . مسألة مختلفة تستحق وقفة تأمل .

حقا ان الحجج التي يقول بها حسين فوزي هي نفسها الحجج القديمة ، فوفقا للتصريحات التي ادلى بها مؤخرا ، يعتقد هذا الرجل ان مصر مجتمع له ميزاته الخاصة ، انها ذات حضارة مستقلة ، وهي حضارة غير عربية ، وهي اقرب الى الغرب ، ويجب ان تتجه اليه . واسرائيل هي امتداد للحضارة الغربية وهي لهذا اقرب الى الحضارة المصرية من العرب ، ثم انه ليست هناك خصومة حقيقية بين المصريين والاسرائيليين خاصة بعد الاسترداد المزعوم للأراضي المصرية المحتلة ، ومن الممكن ان ينشأ تعاون مثمر مع الدولة الغربية المتحضرة المتمثلة في اسرائيل . . ويتضمن هذا التفكير ايضا اسقاط المرحلة الماضية ، لثورة ٢٣ يوليو التي عجزت لافتقارها الى الديمقراطية الليبرالية عن ان تنجح في الحرب ضد اسرائيل والتي ورطت مصر في حرب لا ناقة لها

فيها ولا جمل تحت شعارات براقة غير صحيحة هي شعارات الوحدة
العبرية ..!!
مثل هذا التفكير ماذا يمكن أن يقول الانسان فيه ؟

انه ليس مجرد رأي قد يخطئ وقد يصيب ، فالاساس الكاذب فيه
شديد الوضوح .. لسنا في حاجة الى اثاره قضية الحداثة والمعاصرة
والاصلاح ، فهذه القضية ان كان يمكن ان تثار في مطلع القرن ، وان تنسب
الى الظروف التاريخية آنذاك ، الا اننا وبعد ان تقدمت الدراسات حول
الظاهرة الاستعمارية واصبحت من بديهيات الثقافة العامة ندرك ان
التخلف الذي تعاني منه الدول النامية ناتج مباشرة عن الاسلوب الذي
اتبعتة الدول الاستعمارية . لن نتحدث عن النهب الاستعماري لثروات
هذه البلاد وتحويلها الى منجم للمواد الخام ومنعها عن القيام بأي محاولة
للنهوض الاقتصادي ، بل دعنا نتحدث عن التربية والتعليم والثقافة
والتخريب المتعمد لهما ونشر الامية الابجدية والثقافية والعمل على اشاعة
التدهور العام في كل المجالات .

هذا لا يمكن ان يقيب عن حسين فوزي ، وبالتسالي فان ايفاله
الحالي في التورط مع اسرائيل لا تنفع معه الحجج القديمة . وان البنيان
الذي يقيم عليه فكرته منهار من الاساس ولا يبقى الا شيء واحد ..
هو الاسترابة الكاملة في نواياه ، وفي دوره الحقيقي .. ولنا ان نراجع
زيارته القديمة للجامعة العبرية بشيء من الحذر والاسترابة .

ومع ان العلاقات الشخصية لا يجوز ان تدخل في التقييم الموضوعي ،
الا ان حسين فوزي يعتبر ظلًا لتوفيق الحكيم على المستوى الشخصي ،
وهو يعيش على هامش توفيق الحكيم كاديب . ومن المؤكد ان زيارته
المشبوهة هذه تمت بموافقة وتحريض الحكيم .

وهذا الرجل هو مرتبط الفرس في الادب الانعزالي وكان دائما لاعم
الاسم ، الا انه لم يكن شعبياً على الاطلاق ، ولم يستطع ان يؤثر في الحياة
الثقافية الا تاثيرات طفيفة .

كان وجوده دائما استكمالا لصورة . فمرحه عقيم لم ينجب مدرسة أو اتجاهها وكتاب المسرح المعاصرون لا يمتنون اليه بصلة ، ولا يستطيع احد ان يجد اية رابطة بين مسرحه الاجتماعي أو الفكري وبين كاتب مثل نعمان عاشور أو يوسف ادريس لم يمرأ به على الاطلاق وكانت اجتهاداتهما تعتمد على نماذج أخرى أغلبها من الأدب العالمي التقدمي ، أما من الجانب التاريخي أو الشعبي فلا صلة للفريد فرج أو الشرفاوي بما قدمه سواء من أهل الكهف أو شهرزاد أو أوديب .. بل ان مسرح توفيق الحكيم كان يعتبر مشكلة بالنسبة للمسرح التمثيلي لافتقاره الى العناصر الدرامية وكان هو يدعي انه يخلق مسرحا في الذهن لا للتمثيل .

أما انجازه في الرواية فقد كتب عدة روايات لم يبرز فيها الا عودة الروح وهي رواية مليئة بالعيوب الفنية ولم تكن أيضا منطلقا لنجيب محفوظ ولا للروائيين الآخرين .

فالحكيم رجل يدرك أن أدبه عقيم وإن تواصله مع القراء ضعيف ، وحينما يلتفت حوله لا يجد له أي تأثير لهذا كان ممثلًا حقدًا على كاتب لعب دورا كبيرا في الحياة الثقافية المصرية هو طه حسين .

وفي تاريخ الحكيم لم يرتبط بأي تيار شعبي . فحينما كان الوفد حزب الأغلبية الشعبي كان هو ضد الوفد . وكان عدوا للديمقراطية الليبرالية في الوقت الذي يدعو فيه الى النمط الغربي . وكان نشاطه الصحفي في صحف الاقلية والتي كان غالبية القراء يتهمونها بالعمالة للسفارة البريطانية والأمريكية فيما بعد .

وهو رجل قادر على أن يغير مواقفه بسرعة وببساطة فقد أوهم الكتاب التقدميين بتقدميته ولم يهتم أحد في عنفوان الاندفاع الثورية والثقافية أن يتوقف للتحقق من صحة هذا الادعاء أو ذاك ، وكان متحمسًا حماسا كاذبا لثورة ٢٣ يوليو ولقائدها جمال عبد الناصر . ولكن ما ان

توفي القائد حتى برز دون حياء ليكتب كتابا مسموما سماه عودة الوعي .

ورغم كثرة كتاباته في صحف اخبار اليوم في الاربعينات الا انه لم يؤخذ على انه كاتب جاد ، وكانت كتاباته نفسها كتابات صحفية خفيفة وضعت خصيصا للتسلية وكان في افكاره العامة يتفق مع خط الصحيفة التي تناصر القصر الملكي وتحاول التعبير عن البورجوازية المصرية وتناصب العداء لكل حركة تقدمية ، بل كانت لا ترضى عن الوفد وتعتبره حزباً راديكاليا خطيراً .

هذا الرجل العاجز عن التواصل الشعبي مع قرائه ينتقل بخطى سريعة الى الصفوف الاخرى ، الى اسرائيل مباشرة . وكان كثير التباهي بأن ابا ايوان وزير الخارجية الاسرائيلي الاسبق قد ترجم له قصته يوميات نائب في الارياث الى العبرية .

وهو اليوم يقود الادب الانعزالي ، ان صح انه يوجد بالفعل أدب انعزالي الآن . . ان المحاولات القديمة التي شارك فيها قد تقبل على انها اتجاه له مبرراته . انها خطأ يستدرج اليه الكاتب في داخل تيار عام .
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>
اما اليوم فان الامر يحتاج الى وقفة .



واذا كانت كتيبة تطبيع العلاقات المصرية الاسرائيلية قد بدأت الحركة بتقديمها توفيق الحكيم وحسين فوزي مستندة الى التيار الانعزالي القديم ، آخذة معها اصحاب المواهب الهزيلة مثل ثروت اباطة واحسان مبد القدوس . . فان العجيب ان ينجرف كاتب مثل نجيب محفوظ في مثل هذا التيار . حقا ان جذوره في الادب الانعزالي تمتد الى الفترة القديمة ، الا انه كان يمتلك القدرة على التطور وعلى رؤية اكثر وضوحا مع مرور الايام . وعلى الرغم من ان الناقد يجد صعوبة في تحديد موقفه العام ،

الا ان الدراسة المتأنية تجد انه لم يقدم عنصراً ثورياً على الإطلاق في رواياته . اعني ان الشخصيات التي قدمها كانت عاجزة ومتردة بل خائنة ومنحطة احيانا . وحينما ووجه بهذا النقد دافع عن نفسه بأنه لم يجد في تجربته الا هذا النوع من الناس ، وانه لم يعثر على شخصية ثورية سوية في كل من صادف من الناس .

وفي الفترة التي بدأ فيها الكتابة حتى الآن كان الثوار الحقيقيون يملأون الشوارع أو يقعون في السجون أو يبعدون عن بلادهم .

ومع ذلك فان كاتباً ذا موهبة كبيرة مثل نجيب محفوظ ينبغي ان يدرس بشيء من الدقة ، ومهما تكن جذوره المرتبطة بمفهوم ضيق عن المصرية ، فانه لم يرتبط باتجاه رجعي .. كانت ارتباطاته العاطفية قبل الثورة مع الوفد . وكانت كتاباته عن ثورة ١٩١٩ الوطنية ممثلة بالعاطفة والانفعال وحب الوطن ، أما فيما عدا ذلك فانه ظل يعاني من ازمات فكرية متعددة فقضية العلم والدين من القضايا التي شغلته ، وقضية الاشتراكية والليبرالية شغلته ، وهو لم يكبد يجد لنفسه مستقراً . ولعل مجاراته لما يسمى بحملة السلام تستند الى مبررات وإن كانت واهية الا انه لم يتفحصها جيداً ..

والحق ان المبدأ الاساسي الذي يحرك النزعات الانمالية في مصر يعمل عمله الآن .. فلقد رأينا ان مصر حينما تنتكس يظهر الفكر الانمالي .. بل ان هذا الفكر يتحول ايضا الى عمل سياسي ، فعقب هزيمة محمد علي قامت تصفية شاملة لكل نزعة عربية .. وبعد قليل كلن توجه الجيش المصري الى افريقيا ، وبدلاً عن التفاعل الذي تم بين الحضارة العربية بمعطياتها الايجابية والحضارة الغربية الحديثة .. حل التقليد والتبعية ..

وهذه الفترة هامة جداً لانها تلقي الضوء على ما يحدث الآن ،

فالعجيب ان الغرب الاستعماري والصهيونية ربيته لم يفرا من تكتيكهما
ولا من استراتيجيتهما .

كان تفاعل حكم محمد علي مدفوعا بالزخم الشعبي المصري مع العالم
الغربي قد اتخذ طابعا مختلفا عن الذي بدأ به .. فبدلا من العلاقات
الغامضة التي كانت في البداية انطلق محمد علي من مواقع ثورية ، وكان
الفرنسيون الذين يعاونون محمد علي في بناء الصناعة وفي تنظيم الجيش
والدولة من الثوار السان سيمونيين ، وقد لجأ عدد كبير منهم الى مصر
بعد ان يسوا من الاصلاح في فرنسا .. ومن مصر بدأ نوع من اعادة
الصياغة للأفكار .. لم يكن السان سيمونيون وحدهم في الساحة ، كان
هناك عدد كبير من المهندسين والعلماء والشبان المصريين ، وكانت تربط
بعضهم روابط وثيقة بالثوار الفرنسيين وكان من بين هؤلاء رفاعة الطهطاوي،
وما تم على أرض مصر لم يكن الا نتاجا لهذا التفاعل . وكان طبيعيا ان
تفرض مصر طابعها العربي على الحركة السياسية والثقافية ، ولذلك كان
مجمل التطور السياسي لمحمد علي هو وحدة عربية تتم بمفهوم العصر ،
عن طريق الفتح العسكري . والمعروف ان ابراهيم باشا لم يكن يجد
مقاومة من الشعب العربي بل من القوى الحاكمة ، وكان ينقل معه الى
المواقع العربية النظم الحديثة وعدوى الاصلاح والبناء التي كانت قائمة
على قدم وساق في مصر قبل ان يبدأ اي تقدم صناعي في بلد كبير الان
هو اليابان بثلاثين عاما .

وكان هذا وحده كافيا لان تتكاتف الدول الغربية وفي مقدمتها
فرنسا لضرب المشروع الجديد ، مشروع الدولة العربية العصرية التي
قامت على أرض الواقع بعملية موامة بين التراث والمعاصرة ولم تكن هناك
صعوبة تذكر في ذلك .

وأبرز نتائج الانتكاسة هي تصفية الجيش وتوجيه ما بقي منه الى
الجنوب .. الى أفريقيا السراء .. وهدم كل المؤسسات الصناعية

واعادة توزيع الارض بما يخلق طبقة جديدة تستند في ملكيتها الى سلطان القوة الاجنبية . ثم عودة الى ذوبان الشخصية في اطار الدولة الضائعة ، الهرمة والمریضة ، الدولة العثمانية .

ونفس المخطط حدث بعد انكسار الثورة العربية ، الا ان الظروف كانت افضل اذ تمت تصفية كل شيء وقوى الاحتلال البريطاني جائمة على الارض المصرية . . وفي هذه المرحلة برزت النزعة الانعزالية بروزا ملفتا للنظر . فهي اذن مرض لا يظهر الا انشاء الانتكاسة أو بايعاز من القوى الفارسية .

وها نحن نجد نفس الصورة تنكرر ، فتصفية الجيش هي ابرز معالم المرحلة الراهنة في مصر ، وتوجيه ما بقي منه الى افريقيا بحجة حماية منابع النيل أو منع الانتشار الشيوعي أو بآية حجة . . وهدم الصناعة وفك المصانع ، والفناء القطاع العام وتشتت الاقتصاد تحت اسماء وهمية مثل سياسة الانفتاح . . ثم ثقافة انعزالية ، واثارة النعرة الاقليمية ، وزرع الكراهية في قلوب أبناء الأمة الواحدة . .

الا يعيد هذا الى الذاكرة كل الاحداث القديمة . . والا ينهنا هذا الى طبيعة الادب الانعزالي ، انها طبيعة خيانية لا تظهر الا حيث تسيطر القوة الاستعمارية ولا تختفي الا حيث يمتلك الشعب العربي المصري ارادته مرة اخرى .

ان الادب الانعزالي ادب موقوت ، وهو ادب مفتعل ، واسلوب من اساليب الادارة الاستعمارية لإحكام القبضة على ارادة العرب المصريين الحرة . .

ولكنه في اضعف حالاته ، وهو اعجز من ان يحقق التزييف المطلوب منه . . تزييف العواطف وتدريب الشعب الذي قدم مائة الف شهيد على أن يصافح قاتليه ، وان يتعايش مع من ليس لهم حياة الا في مماته . . ان الادب الانعزالي سوف يكون اضعف ادوات التطبيع .



الأيديولوجية الانعزالية

مناهيها
سماتها
وسجل أولي معها

جورج ناصيف
عضو وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين

البحث في « الأدب الانعزالي » يطرح ، منذ البداية اشكالية تاريخية تستدعي الوقوف عندها : هل تولد ، خلال العهد العثماني ، وعلى امتداد عصر النهضة الادبية الحديثة ، ما يمكن اعتباره ثقافة انعزالية خاصة ،

منقطعة عن الثقافة العربية — الاسلامية السائدة في عيوم المنطقة العربية أو ان المشروع الاستعماري قد اطلق وتعهّد تيارات ايديولوجية تقول بالانسلاخ عن الانتماء العربي وتنبأ من الحضارة العربية وتنفّر للخصوصية اللبنانية ، عرفها لبنان في العشرينات وبعدها ثم عادت تنبعت مجدداً خلال الحرب الاهلية اللبنانية ؟

بكلمة اخرى : هل هناك ادب انعزالي ، أو ثمة ايديولوجية انعزالية ؟

لنسجل اولاً ، بعض الوقائع التاريخية :

في ظل مجتمع اقطاعي ، زراعي ، حربي ، عاش سكان القرية الشرق اوسطية ، وهم غالبية سكان الامبراطورية العثمانية ، حياة انكفاء داخلية ، مطبوعة بالتخلف الاقتصادي على مستوى ادوات الانتاج وعلاقاته ، وبالمحافظة الدينية والاخلاقية ، معزولة عن طغي تأثير التغيرات الخارجية ، « راکدة لا تتغير » ، وممتنعة أمام التغيرات ومحاولات الاصلاح والثورات في القرنين التاسع عشر والعشرين ، حتى طبعت محفلتها نمط مجتمع الشرق الاوسط بأكمله حتى اليوم » (١) .

فالاتقيات غير الاسلامية تنظم حياتها الدينية والاجتماعية والادارية والتعليمية والقانونية وفق قانون « الملل » وبصورة منفصلة الواحدة عن الاخرى مما وفر لها « استقلالاً ذاتياً » بعيد المدى من كل النواحي . كان لها مؤسساتها الخاصة ، الاقتصادية والدينية والقضائية ، « وكانت كل طائفة مسؤولة عن اعادة مؤسساتها » (٢) . مما جعلها ، اضافة الى الطوائف الاسلامية غير السنية ، متكفلة على نفسها ، لا ترتبط بالسلطة المركزية أو بملزيمي الضرائب الا بعلاقة هامشية ذات طابع قهري استغلالي وبدت هذه الطوائف ، وكأنها تمتلك ثقافات خاصة بها . والواقع ان هذه الاخيرة هي تعبيرات ايديولوجية فلاحية عربية تلونت بالوان دينية — مذهبية ذات طابع معارض بشكل عام للسلطة المركزية القمعية » (٣) حتى ذهب فيليب حتي الى اعتبارها « بمثابة دولة مصغرة ضمن دولة كبيرة » (٤) .

فهل كان لجؤ الجماعات اللبنانية الدينية ، والمسيحية تحديداً ، الى الانتظام في كتلات واتحادات اجتماعية وسياسية وثقافية منظمة ومتماسكة (٥) كما يعلن جواد بولس ، مدخلا على عيشها تقاليد وعلاقات انسانية واجتماعية خاصة بها ، وانتاجها ثقافة مختلفة بالكلية عن الثقافة العربية — الاسلامية ؟

على المستوى الاجتماعي ، لم تكن المؤسسات والتقاليد ، والعلاقات الانسانية والاجتماعية السائدة في مقاطعة الجبل « لتختلف في شيء عنها في المناطق الاخرى من المشرق العربي — فهي تحمل جميعها سمات مجتمع عربي — اسلامي . فالعصبية بالمفهوم الخلدوني ، الانقسامات والتحالفات وفق الانتماءات التاريخية العربية الموروثة (القيسية واليمينية) ، طريقة استثمار الارض .. كلها سمات اقتصادية اجتماعية ، سياسية عربية اشتركت فيها كل العائلات صاحبة المقاطعات في الجبل دونما تمييز بين المسلمين ومسيحيين » (٦) .

ففي مناطق الجبل اللبناني « تتشابه اشكال الاجتماع البشري ، وردود الفعل الذهنية ، وهي ناتجة عن الانتساب الى ثقافة واحدة » « فالنظام الواحد للقرابة ، واللغة الواحدة وهما يشكلان المقومات الاساسية للثقافة في المشرق العربي ، كائنا في اساس الحياة الاجتماعية والعقلية لجميع الفلاحين في جبل لبنان » (٧) بحيث لا يصح الحديث عن مجتمعات منفصلة تماماً ، متباينة في سلوكها الاجتماعي ، رغم العزلة النسبية التي كانت تعيشها في الريف الزراعي .

اما على صعيد النتاج الادبي لدى الطوائف المسيحية في هذه الحقبة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى اواخر القرن التاسع عشر ، والذي تراوح بين الشعر والزجلات والتاريخ الكنسي والعام والتأليف النحوي ، فقد حمل الكثير من السمات العربية — الاسلامية ، سواء في النهج المستخدم ، او في الموضوعات التي طرقتها ، او في المخزون الثقافي الذي

يأتي ليكشف عنه .

فالبطريك اسطفان الدويهي الاذهني، الذي عاش في القرن السابع عشر وتلمذ في المعهد الماروني في روما . والذي يشكل « نموذجاً للمؤرخ في لبنان » (٨) ترسل خطى المؤرخين العرب في مؤلفه « تاريخ الازمنة » الذي شاءه تاريخاً للطائفة المارونية منجاء تاريخاً للمنطقة العربية ، حتى « وقع في اسر اصحاب الحويلات والاخبار فدون الحوادث كأنها امور سنوية » (٩) .

ولم يشكل الدويهي ظاهرة خاصة بين مؤرخي تلك الحقبة ، بل شاركه في منهجه لاحقاً طنوس الشدياق (١٧٩٤ — ١٨٦١) الذي أرخ « للامر المارونية والدرزية والمسلمة في لبنان » الى جانب عدد من الكهنة والكتاب الذين احدث اهتمامهم الجديد باللغة العربية تأثيراً عميقاً في حياتهم الفكرية ، مآدى ذلك قبل كل شيء الى اثارة وعيهم التاريخي ، مما دفع بعض الكهنة المثقفين الى دراسة آثار العرب (١٠) .

والمطران جريمانوس فرحات ، الذي يتخذ الدكتور نقولا زيادة نموذجاً آخر على اللغوي الشاعر في تلك الحقبة ، « قال الشعر معرباً ، بعدما كان زجلاً برياتي الوزن » ، وهو الى ذلك « أول نصراني الف في النحو » (١١) وقد حملته حب للعربية على « تعريب الانجيل مسجوعاً (١٢) بل لعله لول من تصدى وقبل سواه » الى وضع معجم صغير ولكنه صحيح سماه الاعراب عن لسان الاعراب (١٣) والى في حلب مجعاً علمياً يعنى اعضاؤه بالترجمة عن اللغات الاجنبية ، وفي طليعتها اللاتينية والاطالية .

واذا دخلنا القرن الثامن عشر لننتوقف امام زجليات الاسقف جبرائيل ابن القلاعي الذي نظم الحوادث التي عرفت المنطقة زجلاً وامام شاعري بلاط الامير بشير الشهابي المتعاطين ، نقولا الترك ويطرس كرامة ، طلعنا بخلاصة ان الثقافة التي انتجت الطوائف المسيحية والمارونية تخصيصاً على ضالتها وتلونها بالطابع الديني الاكثريكي ، « تشكل جزءاً لا يتجزأ من الثقافة السائدة في المنطقة العربية وبالتحديد السائدة في المشرق

هذا من حيث ثقافة « الملة » المارونية (والتي اخلت مكانها لتعبير « أمة » في لغة المستشرقين الاجانب كما في لغة المراسلات الدبلوماسية في عصر التدخل الاستعماري في المشرق) .

اما من حيث الانتاج الادبي الخصب الذي جرى على اقلام المسحيين من ادياب النهضة الكبار (امين الريحاني ، ميخائيل نعيمة ، مارون عبود ، رثيف خوري ، جبران خليل جبران ، الياس ابو شبكة ، شفيق المفلوف وسواهم) فان قراءة ، ولو عجلي له ، تجعلنا نقف على المضمون الديمقراطي الذي يخرزونه ، متجليا في خمس سمات مميزة يتسم بها مجمل هذا النتاج ، على تفاوت بين كاتب وآخر :

١ — عدائيته حيال الاستعمار الغربي ، كنهاب للثورة القومية ، وكذلك حيال مادية الغرب ولا اخلاقيته .

٢ — ثورته على الاتطاع بوصفه يقع في اساس التظلف الاقتصادي الاجتماعي وعلى التقاليد الاجتماعية التي تعيق حركة التطور .

٣ — تمرده على الكهنوت ، كحليف للنظام الاتطاعي ، ودعوته اللجوجة الى انسحاب رجال الدين من نطاق العمل السياسي ، وانخراطهم في مجال الالتزام الاجتماعي ، الى جانب المستضعفين والفقراء والمعطاش الى الرحمة والعدل .

٤ — تحسسه اوضاع البؤس التي يعيشها المستغلون (بالفتح) وانجذابه نحو الشعارات التي وفدت اليها مع الثورة الفرنسية ، والقائلة بالحرية والمساواة والاخاء بين بني البشر .

٥ — اعلانه انتهاء الشعب اللبناني الى العروبة ، حضارة وتراثا ورباطا سياسيا واشترাকা في المصير الواحد ، ومناهضة لاية دعوة تقول بالانعزال عن العالم العربي سياسيا ، او تتبرا من الحضارة العربية انتهاء .

نحن اذن امام ادب نهوضوي غلبت عليه الاتجاهات الديمقراطية العلمانية غلبة كاسحة يدعو رواده الى قيام مجتمع يبني على «قاعدة المواطنة لا الطائفية» ، على قاعدة القومية العلمانية الجامعة لشتات الامة» (١٥) مع ما يمثله هذا الموقف من قطع واضح مع اي اتجاه انعزالي او فاشي او طائفي عصبوي .

اما النتاج « الادبي » الذي جاءت به الحرب الاهلية ، باقلام كتاب انعزاليين ، فهو من الضالة والابتذال والفجاجة السياسية الصارخة بحيث امتنع كافة المشتغلين في النقد الادبي ، عن اعتباره ادبا يستحق الدراسة او يستأهل وقفة تقييم جدية ويجعلنا نتعاطى معه بوصفه لونا من اللون المناشير السياسية الرخيصة ، والمفتقرة الى الحد الأدنى من الإبداع الادبي (١٦) .

من خلال هذا الاستعراض ، وقد شئناه مدخلا يعيننا على تحديد دقيق للموضوع قيد البحث ، نبلغ الخلاصة التالية :

ان الحصيلة العامة للادب اللبناني في تجلياته التاريخية الاولى كما في تعبيراته الحديثة لا تبيح الحديث عن ادب انعزالي ذي شأن ، وتلزمنا البحث في نطاق آخر نراه ادنى الى المقاصد التي يتطلع اليها المؤتمر ، عفاً به : الايديولوجية الانعزالية ، في مفاهيمها وسماتها وتعبيرها السياسي وصولاً الى السجل الاول مع مفاتيحها الرئيسية .

ملاحظات منهجية :

الايديولوجيا ، تعريفاً ، هي قراءة مضللة للواقع ، وعي مزيف يحجب المصالح المادية ، ويستبدل بها مصالح وهمية . وهي على هذا الصعيد اذا ملكت وعي الجماهير ، تحولت الى قوة مادية حقيقية يحذر ويلهام رايش من الاستهانة بها ، « بعدما اتضح انها اقوى ، في مرحلتنا التاريخية الراهنة من ضغط الحاجة المادية ، ولولا ذلك لما كان هتلر وتيسن هما اللذين

يتربعان على سدة السلطة الآن» وما يصح على الجماهير الألمانية المضللة بفعل
الايديولوجية النازية يصح في وجوه عديدة منه على الجماهير المسيحية التي
تلعب الايديولوجية الانعزالية دور الحاجب لمصالحها الفعلية (١٧) » .

ولكن لا بد لنا ، قبل العرض التفصيلي للمفاهيم التي تشكل مفاصل
الايديولوجية الانعزالية من بعض الملاحظات المنهجية التي تشكل ضابطا
نظريا وتاريخيا للنص :

١ — السؤال الاول الذي يستدعي اجابة هو : اذا كانت كل
ايديولوجية هي ايديولوجية طبقة بعينها ، فكيف يصح الحديث عن
« ايديولوجية انعزالية » بشكل عام ، كما لو ان الجمهور الانعزالي يشكل
طبقة متجانسة ؟

في الاجابة ، نؤكد مسبقا ان الايديولوجية الانعزالية هي في الواقع
ايديولوجية قسم من القيادة الطبقة والسياسية داخل الطائفة المارونية ،
وقد بانث معممة على سائر الطبقات والشرائح التي تجتمع في الطائفة .
وتعميم هذه الايديولوجية هو الذي يشكل اساس الهيمنة التي تمارسها هذه
القيادة الطبقة على عموم أبناء الطائفة ، خصوصا وانها تمتلك جهازا فعالا
من المؤسسات الاكاديمية والتربوية والاعلامية تؤمن ضخ هذه الايديولوجية
وشيوعتها .

٢ — ان المفاهيم الايديولوجية الانعزالية لم تكن دائما واحدة خلال
المراحل التاريخية الممتدة منذ الربع الاول من القرن الحالي وحتى اليوم .

ففي كل مرحلة تاريخية ، كانت القيادة الطبقة المهيمنة داخل الطائفة
المارونية تصوغ مفاهيم ايديولوجية معينة ، تخدم مصالح هذه الطبقة في
هذه المرحلة المحددة زمنيا . واذا كنا قد اضطررنا الى عرض المفاهيم
الانعزالية بشكل مجرد ، ودون ادراجها في سياق نشأتها التاريخية ، ودون
تمييز بين ما طغى من عناصرها في مرحلة ما ثم انحسر في مرحلة لاحقة ،

كالتمييز الذي يمكن اعتياده مثلا بين ايدولوجية ما قبل الحرب الاهلية ، وايدولوجية الحرب نفسها ، فان ذلك لا يلغي حقيقة ان بعض هذه المفاهيم ، او بعض عناصرها على وجه التحديد ، قد جرى تضخيمه خلال الحرب على حساب بعضها الآخر . فالمفهوم الذي يعتبر لبنان منتميا الى الحضارة الفينيقية والمتوسطية كان تعبيرا عن حاجة البرجوازية التجارية في العشرينات وما بعدها ، الى ايدولوجية تغطي عملية نهبها للمنطقة العربية وغزوها الاسواق . غير ان المفهوم قد سحب من التداول خلال الحرب لصالح مفهوم « لبنان المردة » ، اي لبنان الذي يتحصن اهله في الجبال في وجه الطغيان الاكثري الاسلامي ويشرعون في مقاومته دفاعا عن وجودهم وتمييزهم وحرمتهم الدينية والسياسية . « لبنان الفينيقي » هو لبنان التاجر ، المنفتح اقتصاديا ، اما « لبنان المردة » فهو لبنان المنعزل سياسيا ، المقاتل دفاعا عن خصوصيته .

وما يصحح على هذين المفهومين ، يصحح على التعامل ايدولوجي مع الاسلام والمسلمين ، حيث ان الموقف العنصري من المسلمين لا علاقة له بمنطقة « لبنان الفينيقي » ، الذي يستلزم الوجود الاسلامي ويحدد وظيفته ، بل بمنطقة « لبنان المردة » ، القائم اساسا من المسلمين ، وبالصراع معهم . لذلك لم يكن غريبا ان يسود المفهوم العنصري خلال الحرب بالذات ، بينما كان خائفا او ضامرا في الحقبة السابقة عليها .

٣ — اذا كانت ايدولوجيا تزور الواقع ، وتضخمه ، غير انها لا تخلق هذا الواقع . لا تنطق من عدم او فراغ . بل تتكئ على عناصر متوافرة في هذا الواقع نفسه ، لتلجأ الى تضخيمها ، وعلى حساب عناصر اخرى ، وتمنحها تفسيراً مزورا .

وبهذا المعنى فان المفاهيم ايدولوجية الاتعالية ليست كلها ايدولوجية ، تزويرية . فالحقول بلبنان ملجأ الاطليات الهاربة من الطغيان الاكثري اعلان عن واقع تاريخي صحيح ، قال به ، بين من قال « القائد

الشهيد كمال جنبلاط . غير ان الايديولوجية الانعزالية تنطلق منه نحو مشروع سياسي ، وتبحث عن كيفية تغليب اقلية على سائر المواطنين ، عوض ان تبحث في كيفية تنظيم التعايش بين هذه الاقليات في اطار نظام ديمقراطي ، علماني .

والقول ايضا بان لا سبيل الى الفصل بين العروبة والاسلام ليس نتاج الايديولوجية الانعزالية ، بقدر ما هو نتاج الفكر العربي الاسلامي السياسي الذي لم يعمد الى مثل هذا الفصل ، بل أكد الوحدة العضوية بين الطرفين ، ما خلا قلة قليلة من المفكرين المسلمين ، تشكل استثناء لا يعتد به كثيرا .

انطلاقا من هذه الملاحظات ، نقدم على قراءة الايديولوجية الانعزالية، كما تقدم نفسها .

١ - مفاهيم الايديولوجية الانعزالية

١ - لبنان الفينيقي :

لبنان ، على المستوى الحضاري لا ينتمي الى الحضارة العربية ، حيث ان الفتح العربي جاءه غازيا ييسط احتلالا عسكريا ويتطلع الى قطع لبنان عن جذوره الحضارية الممتدة في التاريخ السحيق حتى الفينيقيين ، واخضاعه لعملية افطار حضارية . « غالفينيقيون هم اجدادنا ، والشعب اللبناني استمر وجوده فوق التربة اللبنانية قبل التبشير الماروني بعشرات الالوف من السنين . هو الشعب الفينيقي اللبناني الذي يعتبر شعبا أصيلا في لبنان » (١٨) « والشعب الماروني فينيقي يعيش فوق التربة اللبنانية منذ آلاف السنين » (١٩) .

ياخذ هذا المنطق نقطة انطلاق له من رفض الواقعة التاريخية القائلة بان الجزيرة العربية هي مهد الشعوب السامية ، معتبرا اياها « هراء وافتراسا محضا اطلقه بعض العلماء المشتغلين بالتاريخ، على انه افتراض

محض لا حقيقة ثابتة. وقد انكر انطباقه على الحقيقة كثيرون من العلماء» (٢٠).

الشعب اللبناني ، اذن ليس من السلالات السامية التي وعدت من الجزيرة، بل هو سليل الشعب الفينيقي اللبناني والشعب الارامي السوري وشعوب البحر « (٢١) وهي شعوب اصلية استوطنت لبنان ولم تعد اليه من الجزيرة .

اما الفتح العربي فهو احتلال محض لم يمتلك تأثيرا فعلياً على الحضارة الاصلية لاهل البلاد « فالتحولات الدينية واللغوية التي حصلت عند الفتح سطحية ومتقلبة ، ولم تغير أعماق السكان الاصليين ، فالصفات الجوهرية التي فيها الوسط الطبيعي للفينيقيين القدماء بقيت كصفات الشعوب الشرقية الاخرى متواصلة بعد الفتح العربي الاسلامي » (٢٢) مستنجا من ذلك انه « بسبب تغيير المظهر الخارجي في اللغة والدين ، تكون اعتقاد بان الفينيقيين والآراميين والبابليين وغيرهم قد اضمحلوا بعد الفتح العربي اما الحقيقة فهي ان هذه الشعوب المختلفة بقيت في بلادها ، ودامت لها طباعها الجوهرية الاساسية » (٢٣) .

يتأسس على ذلك ان الموارنة يحتفظون في شخصيتهم الجماعية ، بالطباع الفينيقيّة سواء على مستوى العناصر المكونة للنفسيّة المارونية او على مستوى السلوك في تحصيل المعاش فقد ورثوا عن الفينيقيين كل شيء: ورثوا روحاً جبارة ، وثابة قوية الشكيمة في خرق الاخطار (٢٤) ومرونة غربية ودمائة اخلاق عجيبة ناتجة عن الروح الانسانية الاصلية التي تحلى بها الفينيقيون ، روح المحبة (٢٥) وورثوا ايضا دأبا على العمل وبراعة وحذاقاه الى حد العبقريّة . وهي من ابرز الصفات الفينيقيّة (٢٦) كل ذلك الى جانب اتقان اللغات بوصفها اساسا لا غنى عنه لمواصلة « مهمة الفينيقيين القائمة بالتقريب بين الشعوب » (٢٧) .

لكن هذا الانتماء الى الحضارة الفينيقيّة لا يقصد له ان ينتهي عند هذه المحطة بل ان يتجاوزها نحو محطة هي المستقر الاخير للفكر

الايديولوجي الاتعزالي في مضمار التاريخ والحضارة : الحضارة المتوسطة
التي كان اول من طورها الفيلسوف اللبناني رينيه حبشي .

ولسنا نجد افضل من الخاتمة التي اختارها الاب بطرس ضو لكتابه
تدليلا على احداث النقلة من القول بالانتماء الى الحضارة الفينيقية
الى القول بالحضارة المتوسطة : « ان حضارتنا حضارة متوسطة عالمية ،
بسبب موقعنا الجغرافي وتركيبنا الانثى وانفتاحنا على العالم . فنحن شعب
متوسطي منذ اقدم الاجيال . وجوهر هذه الحضارة ومركزاتها وعناصر
تركيبها وتعبيرها فينيقية لبنانية ومتوسطة عالمية معا وفي هذا المركب
الرائع اللبناني الانساني ، دخلت العربية منذ مدة كجزء من الخطوط
والملامح » (٢٨) .

فالمتوسطة استيعاب للحضارة الفينيقية وسواها من الحضارات
التي عرفها ساحل المتوسط : اطار يضم اليه هذه الحضارات بحيث يحو
الطابع العربي عنها ويذيبه في هذا الكل ، نوع من الكوسموبوليتية
الحضارية توفر اساسا للمركبتلية الحديثة ، ولنفسية التاجر الوسيط
الذي يتمثل بالتجار الفينيقين الذين ، على مذهبهم اليه الاساطير اليونانية .
فقد تاجروا بكل شيء ، تاجروا بالرق ، زجاجا ونشأ ، واطفالا ، اشتروهم او
خطفوه » (٢٩) وهي تشكل ، في الايديولوجية الاتعزالية ، بديلا عن الحضارة
العربية ، اذ « تقدم الحل الوحيد الصحيح للهوية الحضارية للبنان والعالم
العربي . انها المخرج من ازمة الحضارة العربية - الاسلامية ، وهي
الجال المفتوح امام قيام اللبنانيين عامة ، والمسيحيين خاصة ، برسالتهم
التاريخية » (٣٠) وهي اخيرا ، ولدى ميشال شيحا ، المستقر الحضاري
الوحيد الذي « يجد فيه لبنان والعالم العربي توازنه » .

٢ - لبنان - الملجأ :

اذا كان لبنان فينيقيا اولا ، كما تعلن الايديولوجية الاتعزالية فهو
ملجأ الاقليات الهاربة من الطغيان الديني والعرقي ، ثانيا . فينيقي على

مستوى الانتباه الحضاري ، وملجأ على مستوى التاريخ السياسي ، والفكر السياسي .

نظرية لبنان — الملجأ التي كان الاب اليسوعي هنري لامنس اول من اطلقها ، تنطلق من مقدمتين :

— ان تاريخ المنطقة العربية هو في خطه العام ، تاريخ اضطهاد الاكثرية السنية الحاكمة للاقلية: العرقية والدينية وتهرها ، باقصائها عن السلطة السياسية ، وتقييد حريتها في ممارسة معتقداتها وشعائرها الدينية . فالنمايز الديني هو الاساس في الصراع والمفتاح الذي يفسر التاريخ السياسي للمنطقة .

٢ — ان الفتوحات العربية ترسد في حقيقتها الاخرة الى هجوم البداوة على المنبسطات الحضارية التي — بها فينيقيا الساحلية (فلسطين، لبنان ، سوريا) حيث بلغ التقدم الحضاري مبلغا لم يعرفه العرب البدو الوافدون على شكل غزوات بربرية تدهيبية لمعالم الحضارة ، وعدائية حيالها .

انطلاقا من هاتين المقدمتين تذهب النظرية الى القول ان لبنان وجباله تحديدا شكلت ملجأ لهذه الاقلية الهاربة من الطغيان بحيث بات تاريخ لبنان القديم ، وحتى الحديث منه ، يرد الى تاريخ هذا الجبل المتساهب بفعل مناعته وتحصنه الجغرافي لاستقبال كل مطرود وملهوف وطامع في الحرية والكرامة .

فالجبل ، هو « شرط وجود هذا البلد وهو ما اعطاه الملامح الاساسية لنفرد ، وما تحكم بوجوده السياسي والعسكري ومنحه الاستقلال ولكنه كتطور طبيعي اصبح فوق ذلك ملجأ دينيا . تحول جبل لبنان الى ملجأ الاقلية الباحثة عن الحرية والامن على اختلاف انواعها » (٢١) وصولا الى القول بانه « اذا استثنينا مسائل الدين والجنس واللغة والاسم التي تعتبر ثانوية ، فتاريخ لبنان هو شخصيته جغرافية جماعية » (٢٢) .

وتتردد نظرية الجبل — الملجأ في مؤلفات فيليب حتي حيث ان لبنان « جبل بكل ما في الكلمة من معنى » وهو بفعل ذلك شكل « ملجأ عبر الأجيال لكل اصحاب عقيدة تخالف عقيدة الجماعة التي يمايشونها وحمى لجماعات من الاقليات المضطهدة » (٢٣) .

وترى كافة الادبيات الصادرة عن الجبهة « اللبنانية » كما توجزها دراسات جماعة الروح القدس في الكسليك ، « ان ما ينقص الجميع ويفتقرون اليه هو هذا اللبنا الذي بغضل موقعه وطبيعته استطاع ان يحضن كل الذين على مر التاريخ قد اضطهدوا بسبب المعتقد الديني وان يؤمن لهم الحرية » (٢٤) .

الجبل — الملجأ ، اذن ، نوع من الحاجز الجغرافي اولا والحضاري والسياسي استطرادا في وجه الحضارة العربية ، والالتقاء السياسي الى المحيط العربي . انه تعبير عن تلك القطيعة المطلوبة مع هذا التراث العربي . انه تعبير عن ذلك السد الذي يحيى « خصوصية اللبناني » ويحصنه ضد الذوبان في المحيط الاكثري الاسلامي . الجبل مكان ينسحب اليه الانعزالي كموقع للانكفاء ، او محطة اجتماع وعيش للراغبين في التفرد والتعالي .

وليس من قبيل الصدفة ان تقابل الايديولوجية الانعزالية مفهوم الصحراء بمفهوم الجبل . فالصحراء اغبر لامتناه ، لون من المد العديدي الكمي ، تعبير عن الفقر والجفاف والعقم والتفاهة في مواجهة جبل مأهول خصب كثيف في عمقه الحضاري، تغلظنه مجموعات عربية ومتفوتة. الجبل انتخاب واصطفاء فيها الصحراء كثرة ورتابة .

وعندما تضع الايديولوجية الانعزالية الجبل في مواجهة الصحراء فهي لا تسوره في المطلق . تحصنه من جانب لتفتحه على آخر : تحصنه ضد الصحراء ، وتفتحه على البحر . على الحضارة المتوسطية ، على الغرب اخيرا .

ولسنا في ذلك لنستقريء بل نقرا ما افصح عنه فيليب حتي : « لبنان يتميز بجباله المتكوين جبال لبنان الطبيعي يجعل اتجاهه نحو بلدان الغرب » (٢٥) .

ينطلق على العرب ، ويفتح على الغرب . بين الصحراء والبحر يختار البحر فهو فينيقي اساسا ، وضارب في الماء . يمعن في البحر ويدعو اليه البحر . اذا طلب رزقا حول الجبل جسرا بين الصحراء والماء واذا دعى ليسفك دما تعبيرا عن انتهاء رفع الجبل حاجزا . تلك هي المعادلة .

اما قال شارل مالك مرة « ان جبل لبنان يعني تاريخا وكيانا ، مئاة وفصلا بالنسبة للصحراء ، واتجاهها وانطلاقا نحو البحر الابيض المتوسط » (٢٦) ؟

٣ - الاسلام والمسلمون :

عندما ترى الايديولوجية الانعزالية في الحكم الاسلامي في عصوره المتعاقبة ، اداة قسمية تتطلع الى ضرب معالم الحضارة المسيحية التي يجسدها الموارنة الفينيقيون ، وعندما تسجل باستعلاء مظاهر التخلف العربي على شتى المستويات ، فهي لا تفعل ذلك انطلاقا من محاكاة تاريخية لانظمة الحكم التي تعاقبت على المنطقة بدءا بالامويين والعباسيين وانتهاء بالمعصور الحديثة بل تتوقف عند الدين الاسلامي معتبرة اياه المصدر الاول للتمع والتخلف والعائق الرئيسي امام تطور هذه المجتمعات .

فالاسلام ، كخصوص قرآنية ، « ينمي روح العداء والعنصرية وروح التسلط والتعالي ومركبات الكبرياء والتسامي ، وهو بدافع عدواني مقدس ، يبرر الاضطهاد الشرس الذي يمس الحرية الانسانية في اقدس خيال لها » (٢٧) .

اما المسلمون تاريخيا فقد اخفقوا في تأسيس حضارة ذات وجه انساني ، « لان البنية الانثوية الاسلامية العربية ، اي بنية اهل السهول والبادي تغلب عليها روح الترحال والغزو والتدمير » (٢٨) .

وعندما تكون الحضارة الاسلامية على هذا القدر من الانغلاق والتعالي ، مشبعة بروح التسلط ، يستحيل عليها اذا ذاك ان تتعايش مع الحضارات الاخرى ، « فالتجارب التاريخية دلت على ان الحضارتين ، المسيحية والاسلامية تصادمتا دوما ولم تتحاورا ، ذلك ان الحضارة الاسلامية استعلائية لا تقبل باحترام الحضارات الاخرى . فنية الاخذ والعطاء غير ممكنة لدى الاسلام » (٢٩) الامر الذي يجعل « من الصعوبة البالغة تصور شعب متعدد الاديان في لبنان باعتباره امة » (٤٠) .

المسلم اذن كائن مغلق على المستوى الذهني ، غير مؤهل للحوار ، ولا للزول عند موجبات التعايش المتكافئ مع ابناء المذاهب الاخرى، سواء بفعل الذهنية الاكتفائية ، العدوانية التي ينميتها القرآن لديه ، او بفعل النواهي القرآنية التي تحظر عليه العيش تحت وصاية ذي او سلطته .

فالاسلام دين ودولة ، والمسلم مدعو شرعا الى بناء دولة الاسلام ، وان قصر المسلمون عنها في ظروف معينة فليس ذلك تخليا عن المطمع النهائي ، بل ارتكبا للفرص المواتية . والمسلم الى ذلك ، يوالي المسلم فقط ، ويرتبط به برباط الدين الواحد مما يضعف الرباط القومي او الاجتماعي الذي يشده الى مواطني بلده من ابناء الطوائف الاخرى، ويجعله دائم التطلع « خارج الحدود » الى حيث اخوته في الدين .

هذه التربية الدينية التي يشب عليها المسلم تجعله موضوعيا ، في حكم الخائن بالقوة للتصاري من ابناء وطنه ، وتبيح للآخرين التعاطي معه بصفه عنصرا لا يؤمن على مصير وطني ، ما دام مشدود الولاء الى ما يتجاوز حدود الوطن . انه « خائن بالقوة » وخبيث ، بالمعنيين السياسي والاخلاقي يتنازل ظاهرا عن مطمحيه في اقامة الحكم الاسلامي فيما يستعد باطناله بالانفس والعدة .

ولم تترك الايديولوجية الاتعزالية هذا الحكم القيمي مضمرا ، بل انصحت عنه بجلاء في مختلف ادبياتها ، واخصها ورقة العمل التي قدمها

حزب الكتائب الى خلوة سيده البير في ٢١ كانون الثاني ١٩٧٧ والقائلة :
« تلك هي العلة الملموسة في بنينا الوطنية ، وفي صيغتنا اللبنانية : عدم
ولاء اكثرية طائفية معينة للبنان الوطن والكيان : الدولة والنظام ،
وتقابلتها للتحرك من الداخل ضد الوطن والكيان والدولة والنظام كليا .
وفي كل حال ، عدم استعدها للدفاع عنها بوجه اي خطر او عدوان يمت
بصلة ولو ظاهريه الى العروبة والاسلام » (٤١) في حين « ان الفريق
المسيحي يعلن ولاءه المطلق للبنان ، ويلتزم بمنطوق الميثاق الوطني القاضي
بان يتخلى المسيحيون عن الحماية الاجنبية » (٤٢) .

٤ - العروبة :

اذا كان الاسلام ، كدين يشكل تهديدا للوجود المسيحي ، فهل تشكل
العروبة خلاصا لهذا الوجود ؟

الايدولوجية الانعزالية تملك جوابا قاطعا . لا

« فالعروبة ، هي الاسلام والمسلم هو العروبة » (٤٣) ولزيد من
التأكيد « فلا عروبة لولا الاسلام ولا استمرار للعروبة لولا الاسلام » (٤٤) .

وليست هذه العلاقة بين الطرفين نتائج ظروف تاريخية معينة ، بحيث
يمكن توقع انفكاكها عند زوال هذه الظروف « فهي ليست عرضية ، ولا
سطحية ولا ظرفية . علاقتها عضوية مستمرة . انها علاقة العلة
بالمعلول » (٤٥) .

كانت اسلامية لدى مفكري القرن التاسع عشر ، واستمرت اسلامية
لدى الكثرة الغالبة من قادة التيارات القومية المعاصرة . لذلك فالقومية
العربية ليست مرحلة متقدمة على الجامعة الاسلامية ، كما طرحها المفكرون
المسلمون اiban الحكم العثماني ، بل هي نفسها الجامعة الاسلامية ، موهمة
بالفاظاتية تومية . القومية العربية هي الشكل الحديث لاتبعات الاسلام ،
التعبير السياسي الراهن عن العصبة الدينية ، فهي بالتالي « اسلامية

المنطلق ، والهدف ، وترمي الى اقامة مجتمع سياسي يتولى القرآن
رعايته « (٤٦) .

اما الحجة القائلة بان المسيحيين كانوا روادا للقومية العربية في
الثالث الاخير من القرن التاسع عشر ومؤسسي الحركات السياسية القومية
في النصف الاول من القرن العشرين فتردها الايديولوجية الانعزالية بالقول
ان التفريق النظري الذي دعا اليه المسيحيون بين العروبة والاسلام ، لم
تأخذ به الجماهير الاسلامية ، ولا قال به المفكرون القوميون المسلمون وان
عودة المسلمين الى قيادة حركة الاتبعث القومي بعد ١٩٠٩ اعاد اليها
الصبغة الدينية ووجد مجددا بينها وبين الدين الاسلامي ، مما يقطع بان
الفكر الاسلامي ، لا يميز بين الانتمائين ، ولا يتصور قومية عربية بلا
مضمون ديني .

٥ - قانون الاكثريّة والاقليّة :

عن اختلاط العروبة بالاسلام ، وعدم لانية المسلم اللبناني للكيان ،
واستقوائه الدائم بالمحيط الاكثري الاسلامي ، تتأتى محصلة تشكل واحدة
من الثوابت في الايديولوجية الانعزالية : ان المسيحيين يعيشون في خوف
دائم من الطغيان لمجرد انهم اقلية في محيط اكثريّة مختلفة دينا . فالاكثريّة ،
بطبيعتها مستبدة . واستبدادها عنصر ملازم لكونها اكثريّة ، مهما حاولت ان
تنهج سبيل الديمقراطية . فمن الثوابت التاريخية والسوسيولوجية الملائمة
لطبيعة المنطقة العربية واقع « الاكثريّة الاسلامية الذي يشكل نوعا » من
الطغيان العددي والفكري والثقافي على ما عداه من حضارات وثقافات
وتراثات « (٤٧) .

ومهما فعلت الاكثريّة الاسلامية لطماننة الاقلية ، ومهما اعلن
الاسلام اللبناني على سبيل التخصيص ، ايمانه بنهاية الكيان اللبناني ،
ورفضه اي لون من ألوان الوحدة العربية ، فان الايديولوجية الانعزالية

تعتبر الازمة قائمة لانه « اذا قيل بان استقلال لبنان الذي طالما اقلق بال المسيحيين واقع قائم ، ونهائي ، ويؤمن به المسلمون قدر ايمان اخوانهم المسيحيين فدلالة على ان المسلمين ما ادركوا بعد حقيقة الغلق المسيحي من هذا القبيل ، انه خوف من طغيان معين ، طغيان سياسي ، طغيان حضارة على حضارة ، طغيان فكر على فكر ، طغيان عددي » (٤٨) .

اما كيف الخروج من هذه الدائرة المغلفة ، فان المشروع السياسي الذي يطرحه التيار الانعزالي ، كفيل بتقديم الجواب : ان تحكم الاقلية الاكثرية حكما استبداديا يلغي فعالية الاكثرية ، فتطمئن عندها ..

٦ — ثلاثية لبنان — المارونية — الغرب :

في مقابل الراي في العروبة والاسلام ، دينا وتاريخا سياسيا ، كيف ترى الايديولوجية الانعزالية الى المسيحية والغرب ولبنان ، والعلاقة بين الاطراف الثلاثة ؟

ثمة معادلة ثلاثية في الفكر الانعزالي حول هذه المسألة ، مترابطة ومتدرجة ، ويمكن ايجازها تحت العناوين التالية :

- لبنان نتاج ماروني ، من حيث الواقع التاريخي .
- المسيحية اللبنانية تنتمي الى الحضارة الغربية .
- لبنان جزء من العالم الغربي .

١ — لبنان نتاج ماروني :

لعل هذا المفهوم يقع في صلب الايديولوجية الانعزالية ، بل يشكل مفصلها الرئيسي لذلك لم يكن عبثا ان يأتي عليه المفكرون الانعزاليون جميعا ، ومن جوانبه كلها .

فؤاد افرام البستاني ، يقيم تلازما لا ينفصم بين المارونية ولبنان « فالمارونية بنت لبنان ، ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه من صنع

المارونية . عملت في تطوره حتى عرف بها وعرفت به فلا وطن لها سواء ،
ولا كيان لها بدونه » (٤٩) .

ويمطرس ضو يجزم بان « لبنان المستقل من صنع الموارنة المردة » (٥٠)
والاب بولس نعمان يذكر « انه حدث يوم من التاريخ كانت فيه دعوة
المارونية من دعوة الجبل ، فكانت الجمهورية اللبنانية » (٥١) معتبرا
الكنيسة المارونية بمثابة الام لهذه الجمهورية « عملت الكنيسة المارونية
كأم طيلة اجيال واجيال فلكي تحل الجمهورية اللبنانية محلها في القيادة
الوطنية » (٥٢) .

وامين ناجي يرى ان اي خط بياني يرسمه المؤرخ منذ الفتح العربي
لنمشرق ، وحتى قيام لبنان الكبير يظهر بوضوح « سعي المسيحيين
والموارنة خصوصا ، في ان يكون لهم وطن يشكل كيانا مستقلا لا يعيشون
فيه اهل ذمة » (٥٣) .

لكن شارل مالك يبقى خير من ضاع هذا المفهوم على الإطلاق ،
ومنحه ترجمته العملية : « كلنا مسؤولون عن لبنان غير ان الموارنة
مسؤولون بشكل خاص ، وفي الدرجة الاولى ، مصير لبنان يقع في الدرجة
الاولى على عاتق الموارنة . اذا ازدهر لبنان وشمخ وملء سلاما وثقنة
ومحبة فلا اقبل بأية حال ان تدمي الفضل في ذلك اية طائفة اخرى ، غير
الموارنة . هذا مجد المارونية وفخرها : ان مصير لبنان وجودا وكيفا ، منوط
بها اكثر من غيرها » (٥٤) .

ولا يقتصر الامر في الايديولوجية الانتمالية ، على القول بلبنان وطنا
للمارونية بامتياز ، يتحد مصيرها بمصيره ، بل يتجاوزها الى اعتبار لبنان
موثلا لجميع نصارى الشرق ووطنا روحيا لهم ، بل ودعوة مفتوحة لهم
ليؤسسوا وطنا على غرارها لو ملكت اياديهم .

ففي التاريخ القديم « ان الطائفة المارونية شعب مختار اصطفاه الله

والجاء الى مناعة جبل لبنان حيث اوكل اليه المحافظة على الايمان الصحيح
وكرامة المسيحيين في الشرق » (٥٥) .

وفي التاريخ الحديث ، « ان لبنان من مدعيات وجوده انه الوطن
الروحي لجميع الشعوب المسيحية المبعثرة في رحاب هذا الشرق » (٥٦)
بحيث يصبح وطننا لثلاثة : « للبنانيين المقيمين فيه ، وللبنانيين المتحدرين
من اصل لبناني وللمسيحيين العائشين في العالم الاسلامي المحيط » (٥٧) .

ب — المسيحية اللبنانية :

جزء من الحضارة الغربية :

الوجه الثاني لتول الايديولوجية الانعزالية بتوحد الحضارة العربية
مع الاسلام، هو قولها بانتماء المسيحية اللبنانية انتماء عضويا الى الحضارة
الغربية في المذهب كما في المعتقدات والميول واساليب العيش ، بما يجعل
المسيحيين المشاركة نوعا من الحالية الغربية وسط شرق متخلف فالمسيحية
اللبنانية ، اولا هي « النسخ الذي تهر عبره الحضارة الغربية الى داخل
العالمين العربي والاسلامي (٥٨) نظرا لان « حضارة الغرب هي حضارتنا
وهذا ما يشكل جزءا من الحقيقة اللبنانية فعندما نقول بان لبنان ملتقى
الحضارتين الاسلامية والمسيحية ، فلا نفهم لماذا يجب ان ننسلخ عن
حضارتنا لكي نؤكد انتماءنا الى هذه المنطقة من العالم » (٥٩) .

هذه التأكيدات التي ترتقي الى مصاف الحقائق غير القابلة للجدل ،
في الايديولوجية الانعزالية تسمح لامين ناجي المنظر الاول لحزب الكتائب ،
ان يعلن انه « وهم المسلمون عندما اعتقدوا ان تخلي المسيحيين عن الحماية
الغربية هو تخل عن الحضارة الغربية وعن اسباب الاتصال الوجودي
بالغرب ، هذا التخلي الذي يعني تنكرا لذاتها » (٦٠) .

ج — لبنان جزء من العالم الغربي :

عندما توحد الايديولوجية الانعزالية المسيحية بلبنان ، ثم المسيحية بالغرب يصبح من باب تحصيل الحاصل ، اعلانها ان لبنان كحضارة وككيان ، هو جزء من الحضارة الغربية ترانا ، ومن العالم « الحر » سياسيا .

وغربية لبنان ليست طارئا يحدث اليوم . بل كانت منذ كان في انظمة الحكم السياسية التي عرفها تاريخا ، « فاتصال لبنان الخلاق ، العضوي بالغرب ليس وليد الامس وليس عرضا من اعراض اي انقضااض استعماري جاءه من الخارج ، او اية مؤامرة استعمارية حيكت له في الغرب انها هو جزء لا يتجزأ من تراثه التاريخي الطويل على تقطعه ومأساويته » (٩١) .

لذلك ، فهو يصر على « ألا تنقطع ، تحت أي ظرف من الظروف ، حيث انها طريقته السوي الى العالم الحر المفتوح الذي هو جزء لا يتجزأ منه بل يصر على تعميق هذه الصلات وتثبيتها » (٩٢) .

وحيث تبسط الجبهة اللبنانية « تفسيرها لأسباب الحرب الاهلية ، تضع في مقدمتها سببين ، « مؤامرة لقطع لبنان عن تراثه التاريخي المتواصل بصورة تعسفية قهرية ومؤامرة لقطع اللبنانيين عن جذورهم في التراث الغربي المتراكم الكثيف الذي تفاعلوا معه عبر التاريخ والذي اعطوه واخذوا منه الكثير » (٩٣) .

وجلي ، هنا ، كيف تربط الايديولوجية الانعزالية بين الانتشاء الى الحضارة الفينيقية والانتشاء الى التراث الغربي ، اذ ترى الواحد وجهها للآخر ، مكملا لمنطقيا له ، وكل مؤامرة تستهدف احد الانتشائين ، تستهدف الآخر بالضرورة .

٧ - التعددية الحضارية :

بهذه المقولة ، يجد الايديولوجية الانعزالية تتويجها الارثى ، ونهاية منطلقتها . في لبنان ثمة حضارتان متميزتان تشكل كل واحدة كلا لا يتجزأ تنتقلان بلا حوار وتنتجان ثنائية في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والايديولوجي والتربوي .

واذا ذهبنا في تقصي جذور هذه المقولة وجدنا انها تضرب عمقا في النظرية التاريخية التي قال بها المؤرخون ذوو الميول الانعزالية وبعض المؤرخين الليبراليين وخلاصتها ان تاريخ لبنان ، قديمة والحديث ، يختزل الى تاريخ « تعاقد » بين الطوائف التي تمثل مؤسسات سياسية واجتماعية وثقافية وان هذا التاريخ هو تاريخ تطور العلاقة بين هذه المؤسسات غير القابلة للاختراق من خارجها ، او التفاعل في ما بينها . مخط التطور ينفي اي انشطار او صراع داخل الطائفة ، ويؤكد تماسك بنيتها الداخلي ، وقدرتها على اعادة توليد عناصر تماسكها ، على الدوام ، والتاريخ السياسي للبنان عندهم هو « تاريخ مستقيم يجعل المسيحيين في علاقة صراعية دائمة منذ الفتح العربي الاسلامي للبنان » (١٤)

فالشعب اللبناني لدى كمال سليمان الصليبي ، « مجموعة من الطوائف جمع بينها حلف هو اقرب ما يكون الى العقد الاجتماعي ، وتاريخ لبنان منذ القرن الثامن عشر هو في المقام الاول ، تاريخ تطور هذا العقد الاجتماعي واثره على نمو البلاد » (١٥) خصوصا وان الاتصال بين هذه الطوائف اقتصر « على التعاون السياسي والعسكري ، ولم يتعد الى المجتمع حيث بقيت كل طائفة بمعزل عن الاخرى » (١٦) لتشكل بذلك مجتمعات مذهبية ذات شخصيات مستقلة تحرص عليها كل الحرس » (١٧) او « وجودا اجتماعيا قائما بذاته الى حد كبير » (١٨) .

يبقى ان هذا التجزؤ الطائفي يشكل ، لدى جواد بولس ، « احد الثوابت التاريخية لهذا البلد » (١٩) .

هذه الاتغلافية بين الطوائف التي انطوت على تطور كل مجموعة بصورة مستقلة ، دفعت بها الايديولوجية الانعزالية نحو اقصاها بالقول ان ثمة تعددية حضارية ، وفق المنطق الآتي :

ان اللبنانيين ينقسمون الى دينين واثنين (اثنى اهل السهول واثنى اهل الجبال) . ولما كان الاسلام نظاما متكابلا في الشائين الديني والمدني ، ينشئ اسلوبا في العيش وسلما في القيم ، والمسيحية كذلك . فتمتد نجم عن ذلك ان المجموعتين الدينيتين قد تميزتا واكتسبت كل واحدة منهما شخصية متماسكة ، غير قابلة للانصهار او الذوبان .

فالتعددية الاثنية ، الدينية « في الاساس ، وعلى مر التاريخ انعكست تعددية حضارية » (٧٠) واذا كانت التعددية « تتمظهر لسانيا او دينيا او مذهبيا او اثنيا او سلاليا او حضاريا ، فهي في الواقع اللبناني تظهرت في ثنائية دينية وبالتالي حضارية » (٧١) .

ومن يقر بالتعددية الحضارية يقر بانها تطال كافة المرافق ، « فالجماعتان المتماقدتان في لبنان مختلفتان في كل شيء : من حيث التكوين النفسي والحضاري من حيث السلوب الحية ، من حيث النظرة الى قيم المجتمع السياسي ودوره واهدافه ، ومن حيث التطلعات الوطنية » (٧٢) .

يبقى ان لهذه التعددية محاسن جمة : كونها ذات قيمة حضارية وتقدمية تفوق العروبة ، وتفوق كل القيم ذات البعد الواحد (٧٣) مما يستوجب ان يكرس لها لبنان رسالته الحضارية مستقبلا فينصرف «اولا واساسا الى تعميم التعددية » (٧٤) .

سماتها

لا شك ان قراءة كالتى فعلنا للمفاهيم الايديولوجية الانعزالية تحمل ضمنها كشفا للسمات الغالبة على هذه الايديولوجية . يبقى تغيرها ، والقاء اضاءا اشد سطوعا عليها .

تتصف الايديولوجية الانعزالية بأربع سمات ، رئيسية : العنصرية ، القمعية ، الفاشية ، الطائفية ، وان كانت هذه السمات لا تنطبق جميعها بالضرورة على كافة المفاهيم الانعزالية ، او يظهر بعضها ساطعا في مرحلة تاريخية معينة ، خافتا في اخرى .

١ - عنصرية - استعمالية

كل من ليس مارونيا بل كل من لا يشاطر اصحاب هذه الايديولوجية ايديولوجيتهم ، هو كائن دوني بهذا القدر او ذاك . انه الغريب السوقي ، الوافد على لبنان هربا « من جوع او بطالة او خوف ، حاملا معه المرض والتخلف والانحطاط الخلقي ، ساعيا الى الفدر بانباء البلد وترويج معتقداته الهدامة » فلبنان لا يشكو الا من خطر اغراقه ببؤلاء الذين يسيئون الى سويته الحضارية ، فهو بفعل تشريع ابوابه لكل طارئ متشرد قد بات خليطا عجيبا لن يعتنم ان تضع معه هويته الاهلية وتلاشى شخصيته الذاتية (٧٥) .

فالوقف العربي الرسمي المناهض للايديولوجية الانعزالية ، يواجه بتساؤل عنصري : لماذا يعاملنا الاشقاء والشقائق بهذه الفيرة الجارفة ؟ الان لبنان اقل فسحة من مساحاتهم الصحراوية ؟

ام لان اناس لبنان اقل عددا من ملايين المخلوقات في بلادهم ؟ (٧٦) .
والامة العربية نفسها ما كانت لتنهض من التكايا والدروشة والتخلف ، لولا الاسهام الماروني « التمديني » : « ان الموارنة لو اهتموا شأن العروبة ، ولو اشاحوا عن بعثها والنهضة بها او تركوها في عزلتها قابعة في زوايا المساجد ، لكان هؤلاء الناعقون اليوم بيق العروبة ، مازالوا في سبيل آباءهم واجدادهم خائعين في مرضاة سلطان البرين وخاقان البحرين ، تحت رحمة كرباج الباشاويش التركي » (٧٧) .

والمسلم اللبناني متخلف ، كسول ، وفير النسل ، شديد البطر ،
« كل ما يقدمه هو النسل الكثير فحسب ، فليس من حقه بالتالي ان
يطالب المواطنين الآخرين بتحمل اعباء ذريته ، وما يحتاجون اليه من عناية
ورعاية ومدارس وتطبيب وعمل .. » (٧٨) وهو الى ذلك ، مفلق على
الحضارة عدواني ، حقود ، يحمل في نفسه بداوه لانهى .

ليس في ذلك ما يكفي للتدليل على هذه العنصرية الجارفة ، والتي
تجد ان خير ما يستحق هذا « الرعاى » هو ان يقدم نفسه يدا عاملة ،
رخيصة في خدمة النظام الراسمالي محرومة من ابسط الحقوق ، وخاضعة
لارقى اشكال القهر :

ب - قمعية

عندما تكون الايديولوجية الانعزالية ايديولوجية عنصرية، استعلائية،
« مالتوسية » في حلولها الاجتماعية، تصبح قمعية بالتعريف . وقمعيها
ليست صفة تضاف اليها من خارج ، بل تضع من مفاهيمها بالذات .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>
ويكفي ان نقرأ التجربة العيانية لهذه الايديولوجية ، وقد وضعت
في حيز التطبيق لنكتشف اية طاقة قمعية تدميرية ، تختزنها ، قمع
الطوائف الأخرى ، قمع فقراء الموارد ، قمع اصحاب الاتجاهات
الايديولوجية المغايرة قمع الاقليات في مناطق السيطرة الانعزالية وقمع
اي تمايز بين القائلين بالايديولوجية الواحدة .

« يجب منع قيام كل حزب او تنظيم او وسيلة اعلام يكون اي منها
تابعا لجهة غير لبنانية ، او موجهة او مدعومة من قبلها ، وتعمل ضد كيان
لبنان وديمومته وتقويض القيم الحضارية التي يؤمن بها » (٧٩) وبكلام
آخر : يجب منع أية ايديولوجية لا تتوافق مع الايديولوجية الانعزالية .

ج - فاشية

اذ نقول بفاشية هذه الايديولوجية ، فلسنا نقصد النزعة العسكرية الطاغية التي المحنا اليها ، بل نعني الفاشية ، من حيث وظيفتها الاجتماعية في تقديم ابناء البورجوازية الصغيرة محرفة على مذبح الراسمال الكبير ، باسم المصالح الموهومة لهؤلاء وباسم مفاهيم قومية عنصرية ، ومن حيث انها دعوة تقيم تلازما بين النظام الاقتصادي والكيان القومي والعرق .

فالفاشية الاوربية تجمع ، كما يقول جورج لوكاش ، وفي آن معا ، التقنية الاشد تقدما (الامبركية) والايديولوجية الرجعية الاكثر تطورا للرأسمالية الاحتكارية في مرحلة الامبريالية : الايديولوجية الالمانية وهي الوسيلة ، في اللحظات الاشد لاحتدام الصراع الطبقي ، لحل مشكلات النظام الرأسمالي عبر تحميلها للطبقات الوسطى ، وبايديولوجية تدعي العداء للرسمية وتستجيب لفظيا ، للقهر الاجتماعي الذي تعانيه البورجوازية الصغيرة التي تنوي استقطابها وحشد خلفها ، في حين ان عداها الفعلي يتجسده نحو الاشتراكية العلمية وتنظيمها الطبقة العاملة ، سياسيا ، وتقابيا .

من هذا القبيل ، فالايديولوجية الانعزالية في بعض تياراتها فاشية تماما (بشر الجميل خير معبر عن عدائيتها اللفظية للرأسمالية) وان كانت الخصوصية اللبنانية تحتم عليها ان تكون فاشية «طائفية مسيحية» عاجزة عن توحيد البورجوازية المسيطرة بكل طوائفها حولها ، وعاجزة عن توحيد جمهور الطبقة الوسطى والبورجوازية الصغيرة ، المتنوع الانتماءات الطائفية خلفها .

ان وظيفتها الرئيسية ، في الاطار اللبناني ، تتحدد في تجنيد الطائفة المارونية برمتها ، وفقرائها في الطليعة دفاعا عن نظام الاستغلال الرأسمالي

الذي ينتج الارمات الاجتماعية التي تصيب الطبقات الوسطى داخل الطائفة، وذلك عبر توجيه نقيمتها كطائفة نحو عدو خارجي وتحميله مسؤولية التردّي في الاوضاع الاجتماعية (السوريون - الفلسطينيون . .) واتهامه بحمل مشروع اباداة الطائفة واخضاعها للقهر . انها تدفع فقراء الطائفة للقتال دفاعا عن النظام الطائفي - الطبقي القائم ، بعد ايهاهم ايدولوجيا (والايدولوجية ذات اهمية فائقة لدى اية دعوة فاشية كالحمة بديلة تجمع المصالح الاقتصادية المتضاربة) بأنهم يدافعون عن وجودهم ومصيرهم في وجه الغريب ، وليس ادل على ذلك من كون فقراء الموارنة ابناء الطوائف الاشد حرمانا هم الذين يشكلون العمود الفقري للجهاز القتالي لدى الاحزاب الفاشية .

ان فاشية الايدولوجية الانعزالية « ترمي الى صرف انظار الجماهير عن الاسباب الحقيقية لبؤسها الاقتصادي والاجتماعي ، وخلاصة ذلك ان هذا البلد يختلف عن سائر بلدان العالم بأنه معصوم عن المشاكل ، بأنه موطن معجزة اقتصادية ، وبالتالي فان اي اضطراب في حياته الاقتصادية لا يعود الى اسباب داخلية ، إنما هو نتاج مؤامرة خارجية . انها مسؤولية الغريباء الذين يريدون شرا بلبنان » . (٨٠)

طائفية

والايدولوجية الانعزالية طائفية حيث انها في منطلقها الاول ، نظرة الى الانسان تحدده وفق انتمائه الطائفي فقط وتتعاطى معه على هذا الاساس .

الانسان يولد في طائفة ، ينمو وسط مناخها ، تحدد له نظرته الى العالم ، موقفه من الشؤون الاقتصادية والايدولوجية ، والناس لا ينقسمون في الاصل الى فئات اجتماعية ذات مصالح اقتصادية ، تتحرك انطلاقا من هذه المصالح ، بل الى وحدات طائفية متماسكة ، تعيش انشطارا ابديا .

والطائفة وحدة سكونية متجانسة ، لاتناقض وسطها ، مصلحة فقرائها هي عينها مصلحة الراسماليين داخلها . واذا كنا توقفنا امام هذه السمات الاربعة فاختيارا لبرزها لاعرضا لجمعها ، حيث ان الغيبة والمثالية الرجعية والنزعة نحو التضخيم الكاريكاتوري للذات (نظرية اللبناني الذي يطحن الصخور ...) تشكل سمات لا يجوز اغفالها .

سجل اولي

مع المفاهيم الانعزالية

خلال عرضنا للمفاهيم التي تشكل مفاتيح الايديولوجية الانعزالية ، اجرينا سجلا مع بعضها ، وارجانا الرئيسي منها لسجل اولي نفرد له هذا الجزء الاخير ، دون ان نطمح في استيفائه .

١ - التعددية الحضارية

لن يتسع المجال ، هنا ، لسجل تفصيلي يدق في الاطروحات الانعزالية حول هذه المسألة . لذلك يقتصر على العناوين العريضة .

الحضارة ، في تعريف معظم العلماء ، هي النتاج الشامل للمجتمع ككل ، تشمل المعارف اليدوية والذهنية والعادات والتقاليد والاخلاق والتنظيمات وسائر وجوه الحياة « فكل ظاهرة تدخل في حركة المجتمع هي ظاهرة حضارية تستوى في ذلك الصنائع والافكار » (١) .

وعندما نأخذ بهذا التعريف ، ونحاكم في ضوءه الواقع اللبناني ، نخرج باستنتاج مؤداه ان اللبنانيين ، على تنوع انتماءاتهم الطائفية ، ينتمون الى حضارة واحدة هي الحضارة العربية وان كانت كل طائفة تملك سمات خاصة بها ، هي نتاج الظروف التي رافقت تطورها التاريخي والموقع الذي احتلته على المستوى الاقتصادي ، وبعض التقاليد الاجتماعية الخاصة .

فإذا كان صحيحا ان الموارنة عرفوا على مر الاجيال بالجرأة والاندفاع والنزعة الفردية ، وان ابناء الطائفتين السنية والملكية في لبنان اختلفوا عن الشيعة والدروز والموارنة في انهم سكان مدن (٨٢) وإذا كان صحيحا ان كل طائفة اكتسبت خصائص تميزت بها عن سواها : من ذلك ان البيئة الجبلية جعلت من الدروز والشيعة والموارنة قوما ذوي عصبية عشائرية . ونمت فيهم الفردية الجامحة - كما جعلت منهم مزارعين نشيطين (٨٣) وإذا كان صحيحا ان ثمة تقاليد اجتماعية خاصة بابناء الطوائف المسيحية ، تقابلها تقاليد يختص بها ابناء الطوائف الاسلامية ، المآثم او الاعراس او المناسبات الاخرى ، غير ان كل هذه الملامح لاتبيح القول ان ثمة حضارتين متميزتين ينتمي اليها اللبنانيون .

فاللغة واحدة ، والادب والفنون مشتركة ، والمفاهيم الاخلاقية متقاربة الى حد كبير ، والمعارف اليومية شائعة بالمقدار نفسه ، والعادات والتقاليد متشابهة ، ومتميزة بمقدار ، والفلكلور مشترك .

ولو القينا نظرة عجل على شهادات المستشرقين الاجانب والرحالة الذين زاروا لبنان ، لتبين لنا اجماعها على اعتبار ان ثمة عادات وتقاليد مشتركة عند جميع اللبنانيين ، او تأكيدها على ان الفروق القائمة تعود في اسبابها الى غير عامل الدين .

فالدكتور لويس لورته (١٨٣٦ - ١٩٠٩) الذي زار لبنان وسوريا بين عامي ١٨٧٥ و ١٨٨٠ كتب يقول « ويقع في ضواحي بيروت شعبان من جنسين جد متجاورين في دينين مختلفين ، استرعيا انتباه اوروبا بهما اشد الانتباه ، وهما الموارنة والدروز . يؤلفان فرعين لا يختلفان الا قليلا من مجموعة العرب المتحضرة الكبرى (٨٤) .

والكتاب الذي نشرته لجنة من الادباء في عهد المتصرف اسماعيل حتي

بك ، يرد فيه تحليل اجتماعي للاختلاف في العادات والتقاليد بين اللبنانيين لا صلة له بالدين ، حيث يقول « ان الباحث يمكن ان يقسم الاخلاق الى نوعين ، فاخلاق القسم الجنوبي من لبنان اشبه باخلاق العرب المتحضرين اذ يكثر فيها الدروز والمسلمون والنصارى الموارنة ، فهم يحرصون على الجوار ويتكافئون على الجميل ويحافظون على العهود والوفاء ، والكرم وعدم الصبر على الضيم ، وفيهم حدة المزاج غالبا والعناد والاباء والتحزب واخلاق القسم الشمالي يكثر فيها لين الاخلاق وخفض الجناح مع الحرس والاقتصاد والتساهل . وبامتزاج الاصول لا تكاد تميز الآن هذه الفروق في كثير من الفريقين » (٨٥) .

اذن ، ثمة تمايزات طفيفة ، عرضية تجعل منها الايديولوجية الانعزالية « سمات ائنية ثابتة لا تتبدل ، في حين انها في الواقع سمات اجتماعية لبني تتطور وتعدل وفق العوامل البنوية الفاعلة ، وهي عوامل ترتبط بالتطور الاقتصادي ، وبمسار هذا التطور وطبيعته الانعزالية ، ومدى انخراط المناطق والقطائف فيه » (٨٦) .

إن القول بهذه السمات ، وتعيين العوامل التي اسهمت في توليدها شيء ، والارتقاء بها الى مستوى الثوابت غير القابلة للتبدل واتخاذها مؤشرا على تعددية حضارية ، شيء آخر مناقض بالكلية .

يبقى سؤال ، رئيسي : هل تؤمن الايديولوجية الانعزالية فعلا بالتعددية الحضارية ؟ اي هل ترضى للمسلمين ان يعيشوا وفق القناعات التي تحددها لهم « حضارتهم » ؟ هل تؤمن بحقهم في التمايز ، وهل تتعاطى مع « الحضارتين » بالقدر نفسه من الاحترام ؟

ان الادبيات الانعزالية ، فضلا عن الممارسة ، تقدم جوابا . فالتعددية الحضارية اسم مزور للتفوق الحضاري ، مقولة ايديولوجية تخفي استعلاء حضاريا وشعورا بالتفوق .

٢ - في الاسلام

ان اي تعاط مع الاسلام ، بوصفه نصا جامدا ، هو تعاط غير تاريخي ويقع في دائرة التزوير . فالاسلام ، اولا ، تنظيم ايدولوجي وسياسي واقتصادي ، يتلون بتلاوين الفئة الاجتماعية التي تحمله ، ويكتسب وجهه من خلال الموقع الاجتماعي الذي تحتله هذه الفئة . فهناك فهم رجعي للاسلام ، وفهم تقدمي ، في عصور الاسلام الاولى كما اليوم ، فهم « المستضعفين في الارض » ، وفهم اصحاب الرساميل ، فهم ينهض به قوة تغيير ، وفهم يقدمه اطارا لشيوع الفكر الغيبي التخديري ، الخرافي .

وما من مرة ، في التاريخ الاسلامي ، الا وعرفت التفيرات الاجتماعية والسياسية كيف تعبر عن نفسها ، من داخل الاسلام نفسه ، تطويعا للتشريع ، وطرقا لباب الاجتهاد .

والاسلام كنصوص فقهية ، وكنظرة الى العالم ، ليس مسؤولا عن التخلّف ، ولا هو في اساسه . ان التفتيش عن اسباب التخلّف يستحيل ان يكون خارج البحث التاريخي في البنى الاجتماعية والاقتصادية التي كانت قائمة وفي طبقة الفئة الحاكمة ومواقفها الطبقيّة ، وفي علاقة العوامل الداخلية بالعوامل الخارجية المتمثلة بالاستعمار ، بشكليه القديم والحديث .

فالحضارة الاسلامية في عصورها الاولى كانت من ازهى الحضارات فهي قد افادت الغرب من علومها في شتى الميادين ، بعدما حضنت النصيب الاكبر من التراث القديم ، وامتدته بالحياة . وبالتالي فلا مناص من التخلي عن هذا الازدراء الذي نبديه للشعوب الاسلامية المعاصرة لنا بحكم تضاول قد يكون عابرا (٨٧) .

والاسلام لم يكن « سببا للجمود او القسوة او العصبية او انقطاع التقدم الاجتماعي ولا لسجن الفكر . وفي كل حال ليس اكثر من اي ايدولوجية اخرى » (٨٨) .

ان الايديولوجية الانعزالية ، في موقفها من الاسلام ، تسترجع صدى كتابات المستشرقين في العصر الكولونيالي ، في اواخر القرن التاسع عشر ، كنا قلنا انها انطوت الى غير رجعة ، فادبيات الكسليك تكرر ، على نحو حرفي ، ما جاء على لسان ارنست رينان في محاضرات له شهيرة القاها في ٢٩ آذار ١٨٨٣ في السوربون تحت عنوان « الاسلامية والعلم » حيث حمل الاسلام مسؤولية تحويل المؤمن به الى « كائن منفلق عن العلم تماما » عاجز عن تلقي اي شيء ، او الانفتاح على اية فكرة جديدة ، واصفا الاسلام بأنه « السلسلة الانقل التي حملتها الانسانية حتى اليوم » كما تستلهم كتابات الاب اليسوعي هنري لامنس الذي لم يخطيء المستشرق السوفياتي ، بلياييف ، حين اعتبر انه « في تضاعيف كتاباته ، وفي نشاطه التعليمي ، يظهر التعصب الديني الاعمى ضد الاسلام » (٨٩) .

الى جانب هذين المرجعين المشبعين بروح التبشير الاستعماري ، تلجأ الايديولوجية الانعزالية ، وبانتقائية مقصودة ، الى ترسانة الفكر الاسلامي الرجعي ، مكتوبا باقلام سلفية ، لتؤكد رأيا في الاسلام .

ان الايديولوجية الانعزالية « تحتاج » الى اسلام متخلف يبررها ويمنحها مصداقية . ترتاح اليه بوصفه يؤمن توالدها وازدهارها ، وليس ما يكسب الايديولوجية الانعزالية لونا من المنطق ، والتماسك والمبرر التاريخي والراهن ، ويجعلها تبدو المتحدثة الوحيدة بلغة الواقع ، اكثر من اسلام يعيش ، ركودا فكريا ، ويقدم نفسه بؤرة لتوالد تيارات من التعصب والسلفية .

وما يصح في المجال الايديولوجي ، يصح بالمقدار نفسه في المجال السياسي ، حيث تبحث الجبهة الانعزالية عن معادل اسلامي لها ، يوفر سنداً لايديولوجيتها الطائفية .

٣ - في اضطهاد المسيحيين

ليس صحيحا ، من الوجهة التاريخية المحضة ، ان التاريخ العربي هو تاريخ علاقة صراعية دائمة بين الفاتحين العرب والمسيحيين في المشرق العربي ، وتاريخ اضطهاد المسيحيين بفعل انتمائهم الديني فحسب .

فالمؤرخون الانعزاليون انفسهم لم يقدموا على اطلاق حكم قيمي مطلق كهذا ، وعمدوا الى التمييز بين عصر اسلامي وآخر فاتهموا بعض الخلفاء باضطهاد الاقليات المسيحية ، وامتدحوا تسامح البعض الآخر ، ومؤلفات جواد بولس ، فيليب حتي ، يوسف السودا ، وكمال سليمان الصليبي تحمل عشرات الادلة على ذلك .

ثم ان كتابات جامعة الروح القدس في الكسليك نفسها ، تقر في بعض المواضع ، « بان الصفة الحضارية الاولى للموارة تقوم فعلا على قبولهم العيش المشترك مع الطوائف بلا استثناء ، والنجاح الفعلي لتجربتهم هذه ، بالرغم من وجود بعض الانتكاسات التاريخية المفتعلة » (٩٠) .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فالمسيحيون ، في كثيرتهم ، لم يقاوموا الفتح العربي ، بدليل « ان الفساسة على حدود سوريا والخصمين على حدود العراق ، وهؤلاء من القبائل العربية ، قد سهلوا مهمة الفاتحين » (٩١) ، وان « سكان لبنان وهم ساميون ، وسكان مصر ، وهم حاميون ، اعتبروا العرب الفاتحين من ابناء جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام الفاسبين » (٩٢) .

ففي معركة اليرموك ، كما يؤكد اسد رستم « انسحبت القبائل المسيحية من معسكر الروم وامتنعوا عن القتال وجاء هذا الانسحاب في صالح المسلمين » (٩٣) وفي قسرين شرق انطاكية ، يؤكد فؤاد قازان ان بعض آل تنوخ وصالح قد اسلموا « حتى ان انطاكية لم تقاوم بسل بقيت مسيحية وصالحت المسلمين مقابل الجزية » (٩٤) ويذهب بلييايف الى

القول « ان القبائل العربية التي نزحت عن الجزيرة العربية قبل الاسلام واستوطنت سوريا واعتنقت النصرانية دينا ، بادرت الى الاشتراك في المعارك الى جانب العرب الفاتحين ، ونخص بالذكر القبائل المنتصرة في سوريا وفي شرقي الاردن ، والتي لعبت دورا عسكريا وسياسيا هاما في القرن الاول للهجرة (٩٥) .

اما الاضطهاد الذي لحق ببعض المجموعات المسيحية في حقب تاريخية متفرقة ، فلم يلحق بها وحدها ولا اصحابها بسبب انتمائها الديني فقط .

فالمتموكل شمل اضطهاده ، كافة الملل من المعتزلة الى الفاطمية ، وهو من دمر ضريح الحسين في كربلاء والمالِك قتلوا من الاسماعيلية والنصيرية والشيعية عددا كبيرا ، فضلا عن ان الحملات المملوكية على كسروان ، وفي القرنين الثالث والرابع عشر ، ابادت آلافا من الشيعة والدروز فكان بدء الجلاء الاسلامي عن منطقة كسروان باتجاه المقاطعات الجنوبية .

والمراجع التاريخية ، من جهة ، تثبت ان واحدا من الاسباب الرئيسية للحملات التي وجهت ضد بعض التجمعات المسيحية ، كان اتهام الدولة الاسلامية لها بمساندة الصليبيين وامدادهم بالعون المادي والبشري ، وبما يجعل الحملة لونا من الوان العقاب السياسي ينزل بمجموعة دينية بفعل مواقفها السياسية في الاساس .

هل نريد ، من ذلك ، ان نقول ان المسيحيين لم يتعرضوا ، خلال الحكم الاسلامي ، لاي اضطهاد ؛ او ان مشكلة الاقليات ، في الوطن العربي ، مشكلة مفتعلة ولا اساس لها تاريخيا او حاضرا ؛

كلا ليس ذلك قصدنا ، ولن نرد على قراءة ايديولوجية للتاريخ بقراءة ايديولوجية معاكسة . بل نريد ان نقول امرين :

١ - ان الدونية السياسية التي عاشها المسيحيون ، خلال عصور الحكم الاسلامي ، بوصفهم من اهل الذمة ، وفي كنف الاسلام وحمائته ، يجب الا تنفي مجموعة من الحقائق ، في طبيعتها ان التسامح الذي ابداه الحكم الاسلامي حيال اهل الذمة ، شكل موقعا متقدما ، بمقاييس تلك الحقبة التاريخية التي لا يجوز محاكمتها وفق معايير حديثة ، ومطالبة انظمة الحكم التي قامت يوما بتطبيق مفاهيم في الديمقراطية السياسية والاجتماعية لم تكن شائعة ولا معروفة ، وما كان ممكنا لها ان تسود ، اذا اخذنا في الاعتبار درجة التطور السياسي التي عرفت تلك المجتمعات وانظمة السلطة فيها .

٢ - ان الحل الذي تقدمه الايديولوجية الانعزالية لمشكلة الاقليات ، لن يكون من شأنه الا تازيم اوضاعها وتعريضها لالوان من القهر والاضطهاد .

نعم ان ثمة مشكلة فعلية هي مشكلة اقلية مذهبية وعرقية تحفظ في ذاكرتها الجماعية ذكريات اضطهاد عرفتة او تميل عانته وجعلها ، في المحصلة الاخيرة تعيش دونية سياسية .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ثمة اقلية غير منخرطة في نسيج الحياة العربية ، تعيش منعزلة داخل فئاقتها السياسية ، يتطلع بعضها ضمنا الى حماية اجنبية ، تعيش مركبات وعقد الخوف من الطغيان عليها ، تسعى الى ضمانات سياسية ومادية تميزها ، وليس جائزا في اي حال تجاهلها او اعتبار مخاوفها بلا اي اساس مادي او ضربا من الهلوسات والاهوام الجماعية ليس الا .

لكن « الحل » الذي تعرضه الايديولوجية الانعزالية ، هو بالتعريف حل انتحاري ، يعمق المشكلة بعيد انتاجها على نحو اوسع ، ويهدد المصير المادي للاقليات نفسها :

- ترد على الخوف في اوساط الاقليات ، بعرض مشروع التحكم

الاقلي ، القمعي عبر القوة العسكرية المحضة ، وعبر حكم المؤسسات الحافظة والمكرسة لهذا التحكم ، وهي بذلك تقدم اقصر الطرق لتجديد المذابح الالهية ولتعريض الاقليات لاشكال من القهر والابادة .

ان التناحر العدائي مع المحيط لا يحمل خلاصا للاقليات ، بل لعله قاعدة توليد مذابح اهلية ، وبوتيرة منتظمة . واذا كان من امثلة لتاريخ الاقليات في المشرق العربي ، فهي هذه : كلما تمايزت الاقلية وشاءت في تمايزها ان تحمي نفسها وتحفظ مصيرها كلما عرضت نفسها لمزيد من احتمالات القهر . كلما طالبت بحماية الاجنبي ، وربطت مصيرها به كلما باتت اكثر انكشافا للانتقام الاكثري ، وكلما عززت فرص قمعها .

— تجنيد الاقلية للدفاع عن النظام الطائفي — الطبقي الذي ينتج ازمتها ، ولتعطيل فرص قيام نظام ديمقراطي علماني يحمل وحده فرصة حل مشكلة الاقلية ، اذ يرفع عنها صفة الاقلية اساسا ويحرر المجتمع من قانون الصراع بين اقلية واكثرية طائفتين ، مؤسسا لقوانين صراع غير طائفية .

— تعرض عليها الخيانة الوطنية والقومية ، عبر الارتباط باسرائيل كسبيل وحيد الى الاستقواء على المحيط الاكثري ، بما يوحد موقع الاقلية المسيحية مع العدو ، ويجعل منها امتدادا له في داخل المجتمعات العربية . وعندما تضع الاقليات المسيحية نفسها في هذا الموقع ، فان في ذلك دعوة مفتوحة ليمارس بحقها الاضطهاد السياسي والديني ولتجري معاملتها بوصفها اقلية خائنة او تنطوي على احتمالات خيانة دائمة .

الى جانب تعميقها مشكلة الاقلية المسيحية وتحويلها الى عنصر تفجير دائم ، فان الايديولوجية الانعزالية ، موضوعة في حيز التطبيق تؤول الى تفتيت البلد وتقسيمة على كافة المستويات ، فضلا عن انها عامل الفناء

لاستقلاله ، وتحويل له الى جرم صغير في فلك الكيان الاسرائيلي ، معدوم الارادة الوطنية خاضعا للاحتلال الفعلي .

انها ، مرتسمة على ارض الواقع ، فعل تدمير للوطن حتى تبقى الطائفة ، وفعل استدعاء للانتداب فيما هي تدعي صونا للاستقلال .

ولكن اذا كان الحل الذي تعرضه الايديولوجية الانعزالية تدميريا الى هذا الحد ، فما هو الحل البديل الذي توفره الانظمة العربية القائمة لمشكلة الاقليات المتزايدة حدة في الوطن العربي ؟ بل وقبل ذلك ينهض سؤال اسبق : اليس ثمة من مسؤولية تقع على عاتق الفكر السياسي العربي السائد في تقديم كل المبررات لانتشار الايديولوجية الانعزالية ونجاحها في تضليل قسم من الجماهير المسيحية ؟

بلى . لنخرج ، هنا ، من دائرة السجال الاحدى الجانب مع الايديولوجية الانعزالية لنلقي ضوءا على الايديولوجية الاسلامية السائدة ، وعلى الواقع الراهن الذي تمشيه حركة التحرر العربية ، واثار ذلك كله في توفير المناخ المناسب لتميم هذه الايديولوجية على شطر من أبناء الطائفة المارونية .

ان مشكلة الاقليات ، في العالم العربي ، هي اولا جزء من ظاهرة عدم الاندماج القومي في المجتمعات العربية ، هذه المجتمعات التي تستنقع في انشطاراتها المذهبية والاقليمية والعشائرية والعرقية السابقة على الوحدة القومية . ثمة تجزئة داخل كل قطر عربي هي اشد خطرا من التجزئة الاستعمارية للامة العربية واكثر مدعاة وتطلبا لمشروع وحدوي يحقق الانصهار القومي ويخرج الامة من تبعثرها وتناثرها .

ومشكلة الاقليات ، ثانيا ، هي نتاج نقص حاد في الديمقراطية السياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية ، تلك الديمقراطية التي لا

يجوز اعتبارها مطلباً اقنويًا كما يتبادر الى البعض - بل حاجة من الحاجات الحيوية للاكثرية نفسها ، حتى تلعب دورها الفعلي في المعركة القومية ، حتى تستعيد حضورها ، بعدما خضعت طويلاً للقهر والتهميش .

ومشكلة الاقليات ، ثالثاً ، هي واحدة من نتائج تخثر المعركة القومية ضد الاستعمار وسطيته ، ترددها ، مراوحتها ، الامر الذي لم يستدع لدى الانظمة العربية التي تقود هذه المعركة انفتاحاً جدياً وشاملاً على الاقليات العرقية والمذهبية ، استنفاراً لها ، وتوظيفاً لطاقتها في المعركة الامر الذي استبقاها خارج دائرة المواجهة .

لم ينهض ذلك النظام العربي الذي ، اذ يخوض مواجهة جذرية وقاطعة مع الامبريالية ، يجد نفسه ملزماً باطلاق حركة ديمقراطية سياسية واجتماعية تطل كافة طوائف المجتمع وفئاته ، توفر حرية التنظيم السياسي والتقابي لافسح الجماهير ، وتستند اليها في خوض المواجهة المديدة .

وبهذا المعنى فان التناقص الايديولوجيات السلفية لدى الاقليات او بروز مشاريع سياسية معادية للظلم العربي/الوطني لدى بعضها . هو التعبير الاجلى عن أزمة حركة التحرر العربية نفسها ، يكثف وسطيتها الايديولوجية ، مساومتها مع الايديولوجية الرجعية . وتعايشها معها . الى جانب ذلك كله ، فان مشكلة الاقليات تتغذى من سيادة وعي ايديولوجي سلفي لدى الجماهير الاسلامية ، كما لدى العديد من تنظيماتها السياسية . ان السلفية واللاعقلنة والظلامية السائدة ودخول الامة عصر النكاي والدروشة ، وانهزام الاتجاهات الليبرالية ، التحديثية هي عناصر تعميم للايديولوجية الانعزالية ، تجعلها تبدو وكأنها المعبرة الفعلية عن مصالح ابناء الطائفة المارونية .

في مواجهة هذا الواقع ، ابن يقع الخلاص الفعلي ؟

ينبغي الاعتراف ، أولا ، بوجود مشكلة راهنة هي مشكلة الاقليات . كانت قائمة على امتداد التاريخ العربي الحديث ، وهي اليوم اشد راهنية . وينبغي ، ثانيا ، تولد فئاعة بان حل مشكلة الاقلية يقع في يد الاكثرية . ان الاقلية لا تحمل خلاصا لمشكلتها من داخلها .

وسلوك الاكثرية حبال الاقلية يحدد ، بدرجة كبيرة ، الخيار السياسي الذي تأخذ به هذه الاخيرة ، ويشكل اما مدخلا الى الحل ، او الى مزيد من التآزم .

تأسيسا على هذه المنطلقات فان الحل الاخير لمشكلة الاقليات يتمحور حول مفصلين :

— الاخذ بالديمقراطية السياسية والاجتماعية والاقتصادية بدلا من القمع ، عاريا او مستترا ، بوصفها صمام الامان الوحيد لمنع الاقتتال والاحتكام الى العنف واطار للتطور .

— اعتماد العلمنة بدلا من الانظمة الطائفية أو شبه الطائفية ، اعتبارا منا بأن العلمنة الكاملة هي الكفيلة بمنع انتاج عوامل التمايز الطائفي ، وتوحيد المجتمع توحيدا قاعديا يلغي البؤر الاجتماعية التي تتولد فيها الطائفية .

ان العلمنة ، اذ تقيم الاعتبار للمواطنين بوصفهم مواطنين فقط ، لا ابناء طائفة ، اكثرية كانت ام اقلية تحرر الاقليات من توجسها ، وتقطع الطريق على أي طغيان اكثري .

بالديمقراطية والعلمنة نخرج من « كوندراالية الطوائف » نحو المجتمع الموحد ، حيث تذوى الايديولوجيات — الماوية ، اتسمى اصحابها كتائب او اخوانا للمسلمين ، او جماعة تكفير وهجرة .

المراجع :

- (١) ز . ي هرشلاغ . مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، دار الحقيقة بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٧ .
- (٢) المرجع نفسه ، ص ٣٧ .
- (٣) د . وجيه كوراني . اشكالية الدراسة التاريخية للثقافة الوطنية . دراسة منشورة في كتاب « الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة » دار الطليعة ١٩٧٩ ص ٢٥ .
- (٤) فيليب حتي . تاريخ لبنان ، دار الثقافة . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٢ . ترجمة اتيس فريجة ص ٤٤٤ .
- (٥) جواد بولس . تاريخ لبنان . دار النهار للنشر ١٩٧٣ ص ٣٥٢ .
- (٦) د . وجيه كوراني . لبنان ، تكوينه التاريخي في اطار التجزئة الاستعمارية للشرق العربي . دراسة منشورة في كتاب « لبنان الخمسة الواحدة » بيروت ١٩٧٧ ص ٦٥ .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
- (٧) د . شوفالبيه . مجتمع جبل لبنان ابلان الثورة الصناعية في أوروبا . باريس ١٩٧١ ص ١٩ .
- (٨) د . نقولا زيادة . ابعاد التاريخ اللبناني الحديث - جامعة الدول العربية ، بيروت ١٩٧١ ص ١٥٧ .
- (٩) المرجع نفسه ص ١٢٥ .
- (١٠) البرت حوراني . الفكر العربي في عصر النهضة . دار النهار للنشر . بيروت ١٩٧٧ ص ٧٩ .
- (١١) (١٢٤١٢٤١١) د . نقولا زيادة . ابعاد التاريخ ... مرجع مذكور ص ١٦١ .
- (١٢) د . كوراني . اشكالية الدراسة التاريخية ... مرجع مذكور ص ٢٩ .
- (١٣) عفيف فراج . الادب في الثقافة الوطنية . دراسة منشورة في كتاب « الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة » مرجع مذكور ص ١٧٠ .

(١٦) للتوسع في هذا المجال يمكن مراجعة النتاج الادبي المنشور في ملفات « العمل » الشهرية (جورج شامي ، جوزف الهاشم ...) و « رسائل من خلف التراس » لمصطفى جحا « وابو لبنان وستين حرب » ليونس الابن ، (واشتعلت النار » لجوزف اليان ، « وحرب المrayة » سلسلة منشورات دار « العمل » كما يمكن مراجعة مقالة جورج ناصيف « تجليات الايديولوجية الطائفية في الثقافة » منشورة في « الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة » مرجع مذكور ص ٩٥ - ١٠٣ .

(١٧) ويلهام وليش . ما الوعي الطبقي . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٤ ص - ٥٠ .

(١٨) بطرس ضو . تاريخ المواجهة الدينية والسياسي والحضاري دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٠ جزء ١ - ص ٣٩٠ .

(١٩) المرجع نفسه جزء ٥ ص ١٣ .

(٢٠) المرجع نفسه . جزء ١ ص ٣٩١ .

(٢١) المرجع نفسه . جزء ١ ص ٣٨٩ .

(٢٢) جواد بوس . تاريخ لبنان . مرجع مذكور ص ٢١٥ .

(٢٣) المرجع نفسه ص ٢١٥ .

(٢٤) بطرس ضو . تاريخ المواجهة ... جزء ٣ ص ٣٩٨ .

(٢٥) المرجع نفسه ص ٣٩٨ . <http://Archivebeta.Sakhril.com>

(٢٦) المرجع نفسه ص ٤٠١ .

(٢٧) المرجع نفسه ص ٣٩٩ .

(٢٨) المرجع نفسه ص ٤٠٥ .

(٢٩) مفيد فراج . دراسات يسارية في الفكر اليميني . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٠ ص ٢٠ .

(٣٠) محلل العمل السياسي مقررات خلوة زغرنا بين التنكيك والاستراتيجية « ملف العمل الشهري » رقم ٩ - ١٩٧٨ ص ١٢٦ .

(٣١) جواد بولس . تاريخ لبنان ص ٢٢٢ .

(٣٢) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(٣٣) فيليب حتي . تاريخ لبنان . ص ٩ .

- (٢٤) الإسلام السياسي ، وهوية لبنان ، سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٤ آب ١٩٧٦ ص ٤ .
- (٢٥) فيليب حتي . المرجع نفسه ص ٨ .
- (٢٦) شارل مالك . لبنان في ذاته . مكتبة التراث اللبناني . بيروت ١٩٧٢ ص ١١ .
- (٢٧) لبنان المستقبل من الانهيار السياسي الى الانشطار النفسي والجغرافي - سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٢ ص ٢٥ .
- (٢٨) المرجع نفسه ص ٨ .
- (٢٩) انطوان نجم . مناقشات ندوة « الانتفاضة اللبنانية » ملف العمل الشهري رقم آذار ١٩٧٧ ص ١٧٩ .
- (٣٠) دراسة تحليلية . مواقف المسلمين اللبنانيين من الحرب اللبنانية - الفلسطينية منذ نيسان ١٩٧٥ « سلسلة القضية اللبنانية » رقم ١٧ ص ١١ .
- (٣١) ورقة الكتائب في خلوة سيدة البير . ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ٨٤ .
- (٣٢) للتوسع في هذا المجال راجع مذكرة المؤتمر الدائم للرؤساء العامين للرهبايات اللبنانية والرابطة المارونية الى النواب ٧٥/١١/٣ سلسلة القضية اللبنانية .
- (٣٣) لبنان المستقبل من الانهيار ... مرجع مذكور ص ٣٠ .
- (٣٤) الإسلام السياسي وهوية ... مرجع مذكور ص ٤١ .
- (٣٥) المرجع نفسه ص ٣٥ <http://Archivebeta.Sakhr.it>
- (٣٦) أمين ناجي . شرعة من أجل ميشاق وطني جديد . المطبعة الحديثة . بيروت ١٩٧٩ ص ٢١ .
- (٣٧) تقرير الامانة العامة في خلوة دار « العمل » الكتائبية . ملف « العمل الشهري رقم ٤ » حزيران ١٩٧٧ ص ٧٠ .
- (٣٨) تقرير بيار الجميل في مؤتمر حزب الكتائب الـ ١٧ المنعقد في برمانا ١٩٧٤ ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ١٨ .
- (٣٩) فؤاد افرام البستاني « مار مارون » منشورات المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥ ص ٧١
- (٤٠) بطرس سو . تاريخ المواطنة .. مرجع مذكور ص ٤٥ .
- (٤١) الاب بولس نعمان . ندوة المارونية ولبنان ١٩ ايار ١٩٧٤ في معهد الرسل منشورة في النشرة التي تصدر عن اللجنة الاسقفية لوسائل الاعلام الاجتماعي في لبنان رقم ١٠ - ١٥ حزيران ١٩٧٤ ص ١٠ .

- (٥٢) المرجع نفسه ص ١٠ .
- (٥٣) أمين ناجي . شرعة من أجل ... مرجع مذكور ص ٣٩ .
- (٥٤) شارل مالك . ندوة المارونية ولبنان مرجع مذكور ص ٢٧ - ٢٩ .
- (٥٥) كمال سليمان الصليبي . الموازنة : صورة تاريخية ص ٢٥ .
- (٥٦) ادوار حنين . ندوة المارونية ولبنان مرجع مذكور ص ٢٠ .
- (٥٧) مذكرة الجبهة اللبنانية الى الشخصيات السياسية العالمية . ملف العمل الشهري رقم ٢ أيار ١٩٧٧ ص ٧٢ .
- (٥٨) محلل العمل السياسي . مقررات قمة زغرنا ... مرجع مذكور ص ١٣٦ - ١٣٧ .
- (٥٩) بيار الجميل . مقابلة منشورة في ملف العمل الشهري رقم ٤ حزيران ١٩٧٧ ص ١٦٠ .
- (٦٠) أمين ناجي . شرعة من أجل ... مرجع مذكور ص ٣٠ .
- (٦١) شارل مالك . لبنان في ذاته . مرجع مذكور ص ١٥ .
- (٦٢) مذكرة الجبهة اللبنانية الى ... مرجع مذكور ص ٧٦ .
- (٦٣) المرجع نفسه ص ٧٣ .
- (٦٤) سليمان نقي الدين . الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة ، مرجع مذكور ص ٧ .
- (٦٥) كمال سليمان الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . دار النهار للنشر ١٩٧٨ ص ٢٨ .
- (٦٦) المرجع نفسه ص ١٤٠ .
- (٦٧) شارل مالك . لبنان في ذاته . مرجع مذكور ص ٦٠ .
- (٦٨) محلل العمل السياسي . لبنان الجديد . منشورات دار العمل ١٩٧٦ ص ٤٦ .
- (٦٩) جواد بولس . مرجع مذكور ص ٣٢٧ .
- (٧٠) أمين ناجي . المناطقية عبر أساس التنوع في الوحدة . ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ٢١٤ .
- (٧١) أمين ناجي . شرعة من أجل ... مرجع مذكور ص ٣٠ .
- (٧٢) الاسلام السياسي وهوية لبنان . مرجع مذكور ص ٤٢ .
- (٧٣) المرجع السابق . ص ٢٥ .
- (٧٤) أمين ناجي . شرعة من أجل ... ص ٥٧ .
- (٧٥) الواقع اللبناني القائم وموقف الرهبان اللبنانيين منه . منشورات الامانة العامة لمؤتمر الرؤساء العاملين للرهبانيات اللبنانية نيسان ١٩٧٥ ص ٤ .

- (٧٦) يوميات لبناني عتيق . ج ٤ ص ١٠٧ .
- (٧٧) المرجع نفسه ج ١ ص ١٠٦ .
- (٧٨) نظام سياسي مقترح للبنان الجديد . سلسلة القضية اللبنانية ص ٥٢ .
- (٧٩) مذكرة لجنة البحوث اللبنانية سلسلة « القضية اللبنانية » ١٩٧٥/١٢/١١ .
- (٨٠) فواز طرابلسي . ملامح الايديولوجية الطائفية ، الثقافة الوطنية ... مرجع مذكور ص ٧٨ .
- (٨١) د . من زيادة . مدخل لدراسة لبنان والمساءلة الحضارية . منشورة في كتاب « لبنان الحضارة الواحدة » . منشورات النادي الثقافي العربي ص ١٢ .
- (٨٢) د . كمال سليمان الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . مرجع مذكور ص ٢٥ .
- (٨٣) المرجع نفسه ص ٢٤ .
- (٨٤) د . لويس لورنت . مشاهدات في لبنان . تعريب فؤاد افرام البستاني . منشورات دار الكتاب ايلول ١٩٥١ ص ٦١ - ٦٢ .
- (٨٥) لبنان مباحث علمية واجتماعية . مجموعة من الادباء . نظر ووضع مقدمته فؤاد افرام البستاني . منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩ الجزء الاول ص ١٦ .
- (٨٦) النزعات السياسية في لبنان . وكالة الانباء الوطنية . مكتب الابحاث والدراسات ص ٦٩ .
- (٨٧) كلود كاهن . تاريخ الشعوب الاسلامية . دار الحقيقة . بيروت ١٩٧٢ ص ٦ .
- (٨٨) مكسيم رودنسون . الماركسية والعالم الاسلامي . دار الحقيقة بيروت ١٩٧٤ ص ٩٩ .
- (٨٩) ي . بلياليف . العرب والاسلام او الخلافة العربية ، تعريب د . انيس فريجة . الدار المتحدة للنشر . بيروت ١٩٧٢ ص ٤١ .
- (٩٠) لبنان والهوية العربية - لبنان والعلمانية . سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٣ ص ٣ .
- (٩١،٩٢) فيليب حتي . لبنان في التاريخ ص ٢٩ .
- (٩٣) اسد رستم . كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى . المجلد الثاني ص ٣٢ .
- (٩٤) فؤاد فازان . لبنان في محيطه العربي . دار الفارابي ١٩٧٢ ص ١١٧ .
- (٩٥) ي . بلياليف . العرب والاسلام ... مرجع مذكور ص ١٩٢ .



حول مواقف الأدباء صمودًا وانزلافتًا (موقعان)

د. عبد الرحمن بياغي
بحث مقدم من رابطة الكتاب الأردنيين
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قال ابن رشيق القيرواني .. في كتابه (المعدة) :

« .. وأحق الشعراء عندي من ادخل نفسه في هذا الباب (باب من ضره الشعر) أو تعرض له ، وما للشاعر والتعرض للحتوف ؟ ! وإنما هو سائل فذل ، فكلم يضيع راسماله ؟ لا سيما وإنما هو رأسه ، وكل شيء يحتمل إلا الطعن في الدول ، فإن دعت الى ذلك ضرورة مخفة فتعصب المرء لن هو في ملكه وتحت سلطانه أصوب ، وأعذر له من كل جهة وعلى كل حال .. » .



ثم قيل في القضية وشعر القضية وشاعر القضية ما قيل في النقد المعاصر .. ومما قيل في ذلك :

« .. فهل عجيب أن نرى حياة الشاعر نفسه : حياته الخاصة ، تنجلي كلها من خلال القضية ، وقصائد الحب نفسها تتحول الى رساميات كفاف ، والحبيبة تنجلي في الأرض والزيتون والبرتقال ، ووشاحها ضمادات الجراح ، والكتاب مناضلون وليسوا فقط كتاب نضال .. والقصيدة ليست صورة عن المعركة وانما هي عنصر من عناصرها وقوة محركة وازميل في قبضة كادح — قنبلة في كف مكافح — محراث بين يدي فلاح — وقميص او باب او مفتاح .. وشاعر القضية ليس لديه الوقت ليعترض على وظيفة الشعر هذه .. محافظة على نقاوة الشعر .. فهذا الشاعر منذ يولد يجد نفسه في المتراس ، يخوض معركة مستمرة ، يستعمل فيها كل الأسلحة .. ويجد أن الشعر سلاح فعال ، ولا يعرف — ربما — أن الشعر عند البعض مجرد حلية للزينة او مخرج افكار عن الحياة بعيدة عن الحياة ! .. لهذا لم

يسأل شاعر القضية نفسه تلك الأسئلة لمرغبة أحياناً : ماذا أقول ؟ وكيف أقول ؟ بل يجد نفسه يقول ، وما كان يمكنه إلا أن يقول .. فيجئ كلامه شعراً كالرصاص والسكاكين وعبير الأرض والإنسان .. ولا يجئ التزامه هذا نتيجة نظرية ما مسبقة في الأدب والفن ، بل يتكون هذا الالتزام حدثاً طبيعياً .. فالشاعر لا يقول إلا ما عنده .. ويتبين أن ما عنده هو قضيته .. والشعر الذي يحمل قضية شعر ملتزم وفيها بعد ، وعلى ضوء نيران المعركة وتجاربها يكشف الشاعر أن لقضية الإنسان نظرية معينة ، وهذه النظرية تضيء قضيته أكثر وتعطي النضال الفعالية الضرورية . فيصير الشاعر وموقفه وشعره بها أكثر عمقا وشمولا .. فتتحدد معالم طريقته .. وتزداد رؤيته وضوحاً .. ويصير ينظر الى المستقبل بثقة وإيمان .. ويترك هذا الانتماء آثاراً حاسمة في سلوكه وفي شعره .. ويتفجر الإبداع لديه تفجراً خصباً باهراً .. وتقوم العلاقة الجدلية بين حركة الإبداع الشعري وتساعد حركة التحرر العربية .. ويكون للشعر دور السلاح في نفس الإنسان وفي واقع الإنسان .. وله فعل العاصفة .. »

(جاء هذا في مجلة الطريق - تشرين الثاني ١٩٦٨ ، كانون الأول سنة ١٩٦٨ عدد ١٠ - ١١ من مقال لمحمد ذكروب عن بعض المميزات الخاصة للأدب المقاوم في فلسطين) .

وانتشر في الحياة المعاصرة .. لا سيما في أوساط الجيل الجديد .. الشعراء القائل بأن « البطل والشاعر توأمان » .

وعلى ما بين القولين .. قول ابن رشيق وقول ذكروب .. من تبعاد في الزمان والمكان .. فيها بضوئان موقعين وموقفين وزاويتي رؤية ومنهجين في النظرة للوظيفة التي يقوم بها الشعر بخاصة والفن والأدب بعمامة .

موقع بنبت في سفحه وفوق تلاله من مرتبط اوثق ارتبطا بحركة

المجتمع والناس والجماعة ولا سيما في تطلّعهم الى التحرر وفي توجيههم نحو التمكن من زمام مصائرهم في حركة التحرر الثورية العربية التي يريدون ان تنفجر . وتؤتي أكلها . . من القضية الذي يؤمن بالحركة والتغيير واتجاه السير التاريخي الى الامام . . من يحمل كل ملامح القضية وعقبها ورائحة عرقها وشذاها واشياءها الصغيرة وخصوصيتها . . ثم يمتد بها ويمتد حتى يصلها بكل حركات التحرر التاريخية والانسانية العالمية واذا الاشياء الخاصة الصغيرة تكون اللحمة ومادة الوصل بين اذن الخصومسيات واشمل الكليات ! . . من يقف في الطليعة لا يكذب أهله . . يصنع الاحداث ولا يقف منتظرا بلوغ صداها اليه . . من في بؤرة الحدث . . من في الخطوط الامامية من قضاياء المطروحة . . من يعي معالم طريقته ويعرفها لانه هو الذي غرسها . . من واضح الرؤية واثق الخطو يتجه نحو المستقبل بحزم وعزم ويتيقن . . من ينمو ويتطور ويحمل هموم اصحابه من غير تناقض مع هموم الآخرين . . من يحس الناس بمدى ضرورته لهم واهميته في حركتهم . . من يعبى وينظم بقناعة داخلية ويقف الى جانب الانسان في مسيرته التاريخية .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وموقع آخر غير حريص على التلاحم مع الواقع الاجتماعي . . بل لعله يؤثر الابتعاد عن الواقع . . يؤثر ان يظل في غيبة عنه . . وفي غيبة عن قضايا الانسان المصرية . . بل في شغل شاغل عنها . . لا يحاور هذا الواقع ولا يقلق عليه . . يفضل ان يكون في مأمن من عواصفه . . يقف في الخطوط الخلفية . . وان خطر له خاطر الاتصال به فهي مجرد علاقة سطحية خارجية آلية ميكانيكية معه تنعكس انعكاسا خارجيا فانرا مترفعا . . باهتا خافتا . . لانه يتلقاه عن غيره . . فلا يزين له هذا الانعكاس الانتفاخ ليقف الى جانب الانسان الخير العادل والانسانية الحقّة . . انه غير حريص على هذا النوع من الحوار الدائم . . انه غير حريص على البحث عن دفع الاذى المترصد للانسان . . او دفع القوى المعادية للانسانية

التي تتبدده .. انه غير مؤمن بهذا النوع من الصراع وبنتائج هذا الصراع .. انه حريص الحرص كله على أن يقبع في الدائرة الذاتية يكاد لا يبرحها . انه لا يثقله امر احدث تغيير في واقعه الا من منطلقة الخاص الفردي .. وهو موقع لا يشغل نفسه في البحث عن الجدل الدائم مع الحياة او البحث عن عوامل الاشياء واسبابها ومسبباتها وعللها . وتطور هذه الاسباب والعامل بتطور المجتمعات وتفاعلها معها وبها .. انه لا يكثر لحقيقة ان الادب حياة او نشاط اجتماعي .. انه لا يريد ان يقترب كثيرا من الحياة .. ان الوعي على الحياة لا يثقله ولا يشكل لديه ضمانة لمعرفة المجتمع .. انه يترى احيانا بالشذوذ او الاغراب ل يتميز بها هو غير مالوف .. وهو حين يرى الواقع لا يروقه يفر منه ولا يقنحه .. ويبغي الى وجود ثان لبس فيه خطر عليه ولا خطر على فرديته .. تلك الفردية التي تخدعه .. وتخدعه .. انه لا يربط بين الكناح المتقابل من اجل مستقبل افضل وبين كل انتاج فني حي متطور .. انه لا يبحث عن تلك الصلة التلقائية بين الخاص والعام .. ان تلك الصلة تقتصر لديه على خصوصيات الذات او الفرد او اسرته .. انها قلما تمتد لتشمل خصوصيات الوطن او الطبيعة التي ينشأ فيها المتفنن المبدع او الى خصوصيات الريف الذي احتضن طفولته ان كان ابن ذلك الريف .. واذا التمازج بالطبيعة ان تم لديه لا يعدو ان يكون غناء رومانسيا خاصا . ان الصلة لديه في هذا الموقع ليست تلقائية بين الخاص والعام .. انها لا تتجاوز التكوين النفسي او الجسدي الخاص لصاحب هذا الموقع .. ان صاحب هذا الموقع لا يفسر الإبداع الادبي الا تفسيرا ذاتيا خالصا او نفسيا خالصا » . انه في خشية دائمة على تلك الذاتية او الفردية .. تلك النزعة التي تجعل صاحبها يزعم ان الادب ليس الا ابداعا ذاتيا فرديا .. انه غير مستعد لان يوافق على ان « الاديب في حياته وابداعه هو محصلة لملاقاته الاجتماعية » .. بل هو يغلب الذاتية حتى ينفي بها الاجتماعية .. انه يخشى الربط بين الابداع

الأدبي والواقع الاجتماعي .. انه يهوم ويجعل من الأدب سرا ولغزا مغلقا لا يفتح الا له .. لا سبيل الى تفسيره وهو يتذرع بهذا اللغز ليقول بالحرية المطلقة في الخلق والإبداع .. تلك الحرية « التي لا تقيدھا دلالة أية قيمة او انتساب .. » .. انه لا يريدھا حرية نابعة من ضرورة .. او صادرة عن وعي . انها حرية يحرص عليها لنفسه .. لا يكثر ان اتاحت للمجتمع تجارة الرقيق واستغلال العمال .. ام اقتصرت عليه وجده دون مراعاة لانسانية الانسان .. انه قد يتغنى بالغربة في هذا المجتمع لكنه غير حريص على ان يربط بينها وبين الواقع الاجتماعي الجديد الذي أُنبتھا .. انه قد يرفض القيم الميكانيكية ولكنه لا يتخذ موقفا ثوريا عمليا منها .. بل يؤثر الهروب من واقعه والانتعاق من مسؤوليات الحياة .. والانسحاب من واقعه لينجو بذاته .. واذا هم « التعبير عن كل ما هو فردي جزئي وعن كل انطباع خاص محدد » .. من هنا كان هذا الموقع بعيدا ، بعيدا عن هوم الجماهير .. بعيدا ، بعيدا عن الهوم المعاصرة .. لا يستطيع ان يندمج بتيارات الحركات الثورية .. بل هو يرقب من وراء الباب ومن خلف الستائر ليجد لنفسه منفذا ينسبل منه الى منافعه ومكاسبه وامتيازاته .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وارتفع هذان الموقعان متقابلين .. وامتدت بينهما الساحة .. وتجمع حولهما المنتمون والمريدون .. وتأرجح فيما بينهما فريق من الكتاب .. وجعل الشد والجذب يقوى ويشدد .. حيناً الى هذا الموقع وحيناً الى ذاك وتجاوزت الانفعالات ببعض الأدباء .. فتجاوزوا حدود الموقعين .. بعضهم مضى بعيدا ، بعيدا الى يمين الموقع الفردي وتجاوزه مسافات الى الراء .. وبعضهم مضى به تفلته الى ما وراء موقع القضية وفن الجماعة وتجاوز الموقع .. وقد وصف دكروب هؤلاء المتقاتلين بقوله : (الطريق — ايار ١٩٧١ عدد ٥) .

« مواقفهم .. يحكمها نزق (اليسار الجديد) المخلخل الجذور الذي —

صار يعتبر أن الانطلاق في الفن وفي الفكر وفي العمل من الجذور للنظرية العلمية واللبسار الحقيقي .. يعتبر أنه (جمود) و (تقليدية) .. الى آخر هذه الاصطلاحات البرجوازية الصغيرة المترججة باستمرار والتي ترى نفسها (اكثر تقدسية) كلما كانت اكثر رجرجة وضياعا وتشوشا في الموقف والفكر والرؤية معا » ..

ولعله أصبح من الواضح أن أصحاب موقع القضية والفن الجماعي يجنحون للتفسير الاجتماعي للأدب .. بينما يجنح أصحاب الموقع الفردي الى « المعايير الفرويدية نارة .. او المعايير الميتافيزيقية نارة .. او المعايير الدينية نارة أخرى » على حد تعبير الاستاذ محمود امين العالم في كتابه (الثقافة والثورة) في معرض الرد على الشاعر صلاح عبد الصبور ، بعنوان : (الشاعر والحقيقة) .

ان المتنين للموقع المثالي الفردي يقلصون تضاييا الكون وهموم العالم والناس فنصغر وتصغر حتى تصبح نحيلة ضئيلة تدخل في حنجرتهم وتبر في فتوات نفوسهم الضيقة .. فتقوم نفوسهم ويضؤل العالم والناس من حولهم .. اما المتنون لموقع الجماعة والقضية .. فهم يمدون في أبعاد (الأنا) الطلعة المنعشة الى الاندماج بالعالم عن طريق العلم والتكنولوجيا بحيث يصلون بهذه (الأنا) الممتدة الى اقصى صورة والى اعماق اسرار الذرة الخفية .. وذلك من أجل دمج هذه (الأنا) المحدودة عن طريق الفن بالوجود العام وذلك من أجل تحويل البعد الفردي الى بعد اجتماعي . انهم يخرجون من جلود أنفسهم ليتصلوا بالكون والعالم والناس اتصالاً حقيقياً .. واذا هم يكبرون ونفوسهم تكبر بهذه الصلة الكبيرة بالعالم الكبير .

في ضوء هذين الموقعين نستطيع أن نتبين مواقف الأدباء ومواقفهم وانتماءاتهم وزوايا رؤيتهم ومناهجهم وفكرهم وما يصدر عنهم من تفسير لحركة السير التاريخية .. كما نستطيع أن نتبين مواقف النقاد والمفسرين والمحللين للفنون الأدبية ..

نحن نسمع ناقدًا يقول ، [محمود أمين العالم في كتابه : (الثقافة
والليرة) حول الفن والحرية] :

« .. فعندما ندعو الأبناء والفنانين الى الالتزام بقضايا عصرهم
فاننا نحذرهم من التورط في النظرة المثالية الى الواقع ، النظرة الجامدة ،
ذات الجانب الواحد ، النظرة التي تطمس ما في الواقع من حياة وصراع
وتناقض وحركة وتدفع ، فهي اما نظرة تجميلية مطلقة واما نظرة تشويهية
مطلقة . وكلتاها نظرة مثالية غير واقعية ، لا تعبر عن حقيقة الواقع !!
والفن والادب الحق ، هو القادر بصدق عن التعبير عن الحركة والتناقض
والتوافق ، لا عن الجمود والنظرة الواحدة الاتجاه ... » .

حين نسمعه يقول ذلك ندرك هويته وانتهاه الى اي الموقعين بصدق
وثبات ! ..

وأصحاب هذا الموقع .. حتى حين يتناولون الحكم على شعراء
وكتاب من غير مواضعهم يدركون الفروق الدقيقة بين كل كاتب وشاعر مهما
يتقوا (الشعراء والكتاب) في الظاهر في موقف واحد .. ان منهجهم يمكنهم
من التمييز الحقيقي ومن تبين اثر العالم والرؤية الشاملة التي يتركها العمل
الادبي والفني في وجدان الناس .. من ذلك ما رآه احد النقاد البارزين من
« أن ديوان — لزوم ما لا يلزم — لأبي العلاء المعري بكل ما فيه من تشاؤم
لا يترك في النفس غير الاحساس العميق بكبار الانسان واحترام قدراته
الخارقة وارادته المعجزة في مواجهة المحن وفساد العصر ، الاحساس
العميق بالمهابة والاحلال والتقدير لهذا الاستيعاب . الفذ لثقافة العصر
والتمكن منها والتعالي عليها والعبث الحلوبها احيانا . وروايات فرائز كافكا
وقصصه القصيرة وحكمه ، ليس فيها من الادب الاسود شيء ان تحرينا
الدقة والحقيقة . انما هي رد فعل ساخر سلبي رافض لواقع اجتماعي
رأسمالي بيروقراطي بشع ، وانه ادب ادانة وتجريم وسخط عظيم . ولهذا

لم يكن له مكان في ألمانيا النازية ، رغم طبيعته السلبية ، وضالة الرؤية الاجتماعية الجديدة ، التي أخذ يتبناها كافكا في سنواته الأخيرة . فإذا انتقلنا الى أدب أديب كبير آخر هو ت . س . إليوت ، خرجنا بانطباع مختلف تماماً . انه من أكبر شعراء القرن العشرين بغير شك وابعدهم اثرا في الشعر الأوروبي والأمريكي الحديث ، ولكنه في الوقت نفسه أكثر ادباء العصر تخلفا عن ادراك حقائق العصر . انه لا يبصر في مجتمعاته الا جانبها المنهار المتفسخ . لا يبصر غير الجذب والخراب والفراغ . انه يدين الحضارة العلمية الحديثة ادانة مطلقة ، انها أرض خراب وانسانها انسان اجوف مليء بالقش . ولا أمل ولا خلاص بسلطة الكنيسة الكاثوليكية ، وان ت . س . إليوت تعبير عميق الدلالة حقا عن انهيار النظام الرأسمالي ولكنه في الوقت نفسه تعبير عن فقدان الرؤية لكفاح الانسان من أجل نظام افضل ومجتمع أرقى . وفي هذا يلتقي معه — بشكل عام — كتاب مسرح اللا ممقول من أمثال يونسكو وبيكيت ، وان اختلفت آراؤهم الفلسفية بطريقة أو بأخرى . هذه اتجاهات ثلاثة قد تتفق ظاهريا في موقف واحد ، هو التشاؤم وإماتة المجتمع البائس ، ولكن الأثر العام الذي يتركه أبو العلاء المعري ، وفرائز كافكا ، غير الأثر الذي يتركه ت . س . إليوت وكتاب اللاممقول . إن الاحتجاج السلبي الساخر في مواجهة فساد المجتمع عند أبي العلاء وكافكا ، نجده عند إليوت رفضاً كاملاً للحضارة الحديثة إغفالاً لما يتحقق فيها من انتصارات ضد التخلف والجذب » .

(محمود أمين العالم : الثقافة والثورة — حول الفن والحرية) .

من هذا الحكم وهذا التقويم وهذا النقد نعرف أي الموقعين يشتمل على صاحب هذه الآراء . . . وأي مكانة من هذا الموقع يحتل . . . وأي مركز قوة لا يتزعزع يمتلكه . . . وما أبعد الفرق بينه وبين فنان أو أديب آخر يصرخ ويصرخ من أجل ماذا ؟ من أجل حرية مطلقة تحيطه بسياج يتيح

له التعبير .. والى هنا .. المطلب عادل .. ولكن صاحب هذه الحرية المطلقة في التعبير تأبى علينا حريته أن نتسلل إليها لنسأله : ما الذي يفعله بحريته ؟ .. إن هذا التساؤل الاجتماعي يتناقض مع مطلق حريته .. إنه لا يسأل عما يريد أن يفعله بأدبه وفنه وماذا يريد أن يقدم للناس من هذه الحرية ؟ إنه هو الذي يقرر لا هم .. إن أنانيته تتحول الى عبء ورفض للمسؤولية الاجتماعية .. إنه حريص « على ترفه العقلي واستمتاعه بثمرات المجتمع دون أن يبذل من أجل هذا المجتمع » الذي يؤبه .

ما الذي يتولاه الناقد محمود العالم في هذا الفنان ؟

« .. من حق هذا الفنان أن يرفض الالتزام في الأدب والفن .. وأن يرفض الوظيفة الاجتماعية للأدب والفرن .. ومن حقه الا يفرق في مستويات الحضارة المختلفة بين وجدان متقدم ووجدان متخلف، بين وجدان ثوري ووجدان رجعي ، من حقه أن يؤمن كما يشاء بأن الأديب والفنان مسير بأبعاده القامضة . ومن حقه أن يمدح فنا تجريدياً معزولاً عن الحياة والثورة الاجتماعية ، ومن حقه أن ينكر اليقين العلمي وأن يقتصره على العمليات الرياضية البسيطة وبعض الجوانب التطبيقية كما يقول والا يرى في العلم غير سلسلة من الفروض ، يرتقي بعضها أحياناً الى مرتبة الحقائق المؤقتة .. ومن حق هذا الفنان أن يهز ويلمز بالسبب وأن يقذف بالحجارة . إنه حر الحرية المطلقة فيما يؤمن به ، وفيما يسلكه من مسلك في التعبير والمناقشة .

ولكن من واجبا أن نقول له ولأمثاله إن نظرتة الى الفن والأدب نظرة قاصرة، تعجز عن اكتشاف الفروق الاجتماعية في المدارس الأدبية والفنية المختلفة ، ترفض أن تجعل له موقفاً من قضايا المجتمع ، وأن نظرتة الى الحضارة نظرة كوزموبوليتية ، وإن حديثه عن اليقين العلمي تفسير مثالي للعلم الحديث ، يفصل بين النظرية العلمية والتطبيق العملي ،

ولا يعرف القيمة الموضوعية للرياضيات العليا ، ولا يبصر منجزات العلم الحديث وسيطرته على كثير من قوانين الواقع الطبيعي والانساني على السواء .

لتكن للفنان والأديب حريته في أن يعبر عما يشاء .. في أن يؤمن بما يشاء ؟ ولكن من واجبنا أن نسأله : ماذا تفعل بحريتك ؟ ماذا تقول للناس ؟ ماذا تقدم لهم من غذاء للوجدان والضمير ؟

(محمود أمين العالم : الثقافة والثورة — حول الفن والحرية) .

وهكذا سواء اكان الأمر أدباً أم فناً أم حكماً أم نقداً أم رأياً فهو يقع في تلك المسافة الممتدة بين الموقعين المتقابلين .. ولكل منهما قواه التي تشد وتجذب أو ترد وتدفع .. والمواقف هي التي تفضح أو تكشف مركز الانتماء الى هذا الموقع أو ذاك ! أو بعد هذا الانتماء من قمة الموقع وقربه منها ! بل في كل موقع مرصد يطل على المسافات الممتدة بين الموقعين .

ويعمرف الأديباء والفنانون مواقعهم .. وتعرف المواقع أدباءها وفنانيها .. فما يراه موقع من شاعر أنه استخفاف به ومحاولة النيل منه حيث يسقط الكثير من رصيد ذلك الشاعر عنده إن كان لا يزال له عنده رصيد .. ما يراه موقع هكذا من شاعر ، يراه الموقع الآخر مادة إعجاب وعظمة ورمعة شأن ... وقد يرى موقع من شاعر دجلاً كبيراً بينما يراه الموقع المقابل ذكاء شديداً .

فحين يقول الن تيت الشاعر الامريكي الناقد في ت.س. إليوت :
« إنه لمن الواضح أن إليوت قد عثر على المنهج الفريد الصالح الآن لاستعمال الصورة الدينية المألوفة في القصيدة الشعرية . ولقد حوله من رمز الى صورة ، ومن معنى تجريدي الى دائرة الاحساس . وطبقاً لهذا المتجه هناك صور من بداعه الخاص كثيراً ما يدفع بها الى ما فوق حدود المحسوس في معان تجريدية فتنخذ مظهر الرموز المألوفة .. » .

(الن تيت : دراسات في النقد . ترجمة د. عبد الرحمن ياغي) .

هذه النظرة التي تستشعر فيها الاعجاب لصنيع ت.س. وإبداعه ..
تنطلق من الموقع المقابل للموقع الذي صدر عنه تقويم محمود أمين العالم
لصنيع ت.س. إليوت .

وحين نقرا إعجاب الن تيت أيضاً بالشاعر إزرا باوند واشادته
بعبقريته : « .. ولعله أن يكون أحد اثنين أو ثلاثة من الشعراء الأمريكيين
الأحياء (وقتئذ) الذين سيظلون يذكرون بأنهم شعراء من الطراز الأول ... »

وحين يتصدى لتقويم شعره فيقول :

« .. هذا هو الشعر الذي له تأثيره فينا أكثر من أي شعر آخر في
زماننا ، إن له شهرة واسعة وسيرة لا نظير لها ، وهو جدير بها ..
لأنه — حتى قارئ البواكير لدى السيد باوند كان في مقدوره أن يلحظ وجود
شكل شعري جديد في الأغنيات المفردة ... »

(الن تيت : دراسات في النقد . ترجمة د. ياغي)

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

حين نقرا ذلك نحس انطلاقة تيت من أي المومنين .. ولا سيما
حين يطالعنا صوت آخر مخالف ينطلق من الموقع المقابل يقول

« .. وأحياناً يستغلّ شاعر معين رصيده لدى القارئ فيستخف
به ، ويحاول النيل منه .. وفي مثل هذه الحالة فإما أن يفتضح أمره فيخسر
شيئاً من رصيده ، أو أن تنجح الخدعة فيكسب مزيداً من الاعجاب . واعتقد
أنه ليس من قبيل الصدف ما حدث مثلاً للشاعر الأمريكي إزرا باوند — وهو بلا
شك شاعر كبير — ولكن النقاد لم يتمكنوا من الإجماع على موقف منه ،
فبعضهم اعتبره أكبر شعراء العصر الحديث ، بينما أصر البعض الآخر
على أنه دجال كبير ! وهناك مسببات لمثل هذا التناقض ، فقد كان إزرا
باوند رجلاً ذكياً جداً ، ويؤكد معارفه من معاصريه أن ذكائه كان أكبر من

موهبة الشعرية . وكان صلفاً معتداً بنفسه الى أبعد الحدود ، وقد قادهم هذا الاعتداد المتطرف بالنفس الى الفاشية بحيث إختار جبهة موسوليني في الحرب العالمية الثانية وحوكم وسجن فيها بعد من جراء ذلك الموقف المشين .. وحين نشرت قصيدته — ورقة البردي — التي يقول فيها بقدر ما تسعفني الذاكرة :

« الربيع ..

طويل ..

يا جونغولا ! »

حين نشرت هذه القصيدة — وهذا هو نصها الكامل — تصدى له بعض النقاد وكالوا له تهمة الدجل ... ولكن رصيده الطويل العريض جعل نقاداً آخرين يتخذون موقف الدفاع وإكساب القصيدة روعة ، لا شك في أنها روعة غريبة عنها دخيلة عليها ... »

(سميح القاسم : عن الموقف الفن)

إنهما موقعان متقابلان يصدر عنهما موقفان مختلفان في العمل الفني الواحد أو الفنان الواحد .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وما دار حول ت.س. إليوت . وإзра باوند دار حول شعراء عرب محدثين بشيء قريب من هذا الذي انطلق من الموقعين :

محين يطبق الكاتب غالي شكري نظرية الثبات في جوهر التراث العربي على صنيع الشاعر سعيد عقل يقول (غالي شكري : شعرنا الحديث الى أين) :

« .. ولست أميل مع القول الشائع بأن تجربة سعيد عقل تصطبغ باللون معادية للقومية العربية .. عميلة للاستعمار الأجنبي .. ولكني أرجح ان هذه التجربة سقطت في برائن وأنياب مرحلة رد الفعل العنيف ازاء مرحلة التزمت والجمود التي أصابت الشعر العربي بالانحطاط آماداً

طوالا .. وغالبا ما تتسم ردود الأعمال بالنضخم والمبالغة .. فيحصل سعيد عتل بالحرف اللاتيني كمخلص أبدي من عذاب الحرف العربي .. وينتهي به الأمر الى أن يهبط في وهاد الشكلية المبتذلة حين ينطلق في تجاربه من المستوى الأدنى للعنصر اللفظي في الصياغة اللغوية للقصيدة .. ففي المستوى اللغوي للتجربة الشعرية يتصورون اللغة العربية في لحظة سكون وثبات لا نهاية لها .. وبالتالي يتصرفون على أساس انعدام الأصل في هذه اللغة اليأس من حل مشكلاتها .. وبدلا من تطور رؤيتهم السكونية هذه الى رؤية عنصر الحركة في جميع ظواهر الكون بما فيه اللغة .. وبدلا من النضال والمشاركة في تغيير معدل السرعة لحركة اللغة .. يرتكون الى الرؤيا العاجزة التي تدغدغ حواسهم ببقطة رومانطيقية في صميمها هي الهجرة الى الحل المطلق ممثلا في الحرف اللاتيني .. مفضلين الاستكانة والاستسلام على الكفاح المرير .. مشاركين موضوعياً في جريمة الجمود اللغوي بترك الحلبة خالية أمام الفريق المحافظ ... »

وهكذا حين يمد أحد الموقعين ذراعيه بالترحاب لأديب أو فنان أو شاعر يسحب الموقع الثاني ذراعيه .. وحين يتسم أحدهما لفنان يعبس الآخر ويتولى .. فالعلاقة بينهما على هذا النحو لا تصفو .. بل يحاول كل موقع أن يخلق الظروف الموضوعية أو يتعامل معها من أجل كسب الانصار في ظلالة أو تقليل عددهم لدى الموقع الآخر .

وحين يرى موقع* أن العمل السياسي والالتزام والتسلح بفكر فلسفي اجتماعي ثوري من شأنه أن يفسد العمل الأدبي ويفرض عليه المباشرة والخطابية يصبح الموقع المقابل معلناً أن هذه القضايا كلها تشكل ضمير الفنان أو الأديب أو الشاعر .. كما يعلن عسدم التناقض بين الفن والضمير في العمل الشعري .. بل على العكس من كل ادعاءات الموقع المضاد فإن كبار المبدعين الانسانيين ومنهم نيرودا ومياكونسكي وبريخت برهنوا بالنماذج الرائعة التي قدموها للعالم أن فن القضية هو

وحده للفن الخالد وإن النظرية الفلسفية العلمية الاجتماعية من شأنها أن تمنح العمل الفني حرارة وتوهجا هائلين .. ومن الخطأ الزعم أنها تقسد الفن وتحد من قدرته على الانطلاق والتوغل .

(سميح القاسم : عن الموقف والفن) .

ويرى موقع الالتزام والتسليح بالفكر الفلسفي الاجتماعي الثوري في نتاج سميح القاسم ونتاج محمود درويش نماذج شعرية أصيلة تؤكد هذه الحقيقة السابقة وتؤكد أن اندماجهما التحرري أو التزامهما هو تعميق وتأسيس وتجذير لاندماجهما بالشعب والأرض وبالتراث والمستقبل .. أي تعميق لاندماجهما بحقيقة الشعر وينبوع الإبداع .

إن المواطنين الفنانين في موقع الالتزام يحسنون ترتيب قضاياهم المعاصرة .. ويدركون بعمق انتمائهم أي هذه القضايا ينبغي أن يرتفع حتى يقف في أول القائمة وأنها يلي في الأهمية .. حتى يكون التسلسل خطة عمل يلتزمون بها .. ولا يكون لديهم انفصال بين حياتهم وفنهم .. فنهم هو الصورة الفنية لحياتهم نفسها ولواقفهم النضالية ولحركة الشعب الذي ينتمون إليه .. من هنا يرى الملتزمون في الفناج الأدبي أو الفني طاقة وقدره على حمل المسؤولية .

ولعل مما يتصل بهذه القضايا التي تروج في أحضان الموقعين : الموقع الملتزم .. والموقع المتفلت من الالتزام .. لعل ما طرحه سمح القاسم حين علق على مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في القاهرة فيما بين السادس عشر والتاسع عشر من شهر آذار سنة ١٩٧٠ .. لعلنا يتصل بهذه القضايا :

(سميح القاسم : عن الموقف والفن) .

« ... خلال المعارك الطويلة والقاسية التي أشعلها الشعب العربي أو فرضت عليه ، كان الأدباء العرب — أسوة بجميع أبناء أمتهم — عرضة

للتناقضات الحادة التي عابت حيناً على السطح وضربت جذورها أحياناً
عميقة في النفسية العربية المنسحقة تحت انقِبال قرون عدة من سيطرة
الاستعمار في الوطن العربي .. ولعل أشد تلك التناقضات خطورة :
الاقليمية والطائفية والقبلية فكيف كانت ردود الفعل لدى هؤلاء الأدباء ؟ .

البعض آثروا ركوب الموجة والاندفاع في نيارها .. كل في الاتجاه
المريح له .. وآخرون وهم المسلحون بالوعي القومي المتزن والوعي
الطبقي اليقظ لم يكن لهم معدى عن رفع راية الكفاح ضد جميع المظاهر
والظواهر الفاسدة .. وقد لقي هؤلاء عنناً .. فسجنوا وعذبوا ..
واستنطقوا ونفوا وصودرت كتبهم وأهدرت دماء كلماتهم ونبرات حناجرهم .

وإنه لمن المؤسف أن جماعة من هؤلاء المكاثرين أرهقهم طول
المعركة .. وتسلسل اليأس السى ضمائرهم .. فإذا بهم ينكمشون على
أنفسهم ويستشعرون العزلة .. وإذا بأعراض الداء تظهر على حروفهم
وأصواتهم .. وعلى سبيل المثال لا عن رغبة في التخصيص أفكر الشاعرين :
عبد الوهاب البياتي من العراق ، وصلاح عبد الصبور من مصر .. فحين
كان الشعب العربي في العراق وفي مصر في زحمة من الأعراس الثورية
انطع هذان الشاعران جيديهما بأروع الغناء .. ولكن حتمية انتصار الشعوب
لا تتجاهل العقبات التي تعترض سبيل الثورة من حين لآخر .. وحين
ابتليت حركة التحرر القومي العربية بانحسار مؤقت في مدّها الثوري
ظهرت أعراض اليأس على حنجرتي شاعرينا الكبيرين .. ووجدنا الأدب
العربي إلا أقله يجتاز سرداباً من الأحلام البرجوازية .. وغلبت عليه
نبرات انهزامية شجعتها دور النشر المأجورة والمؤسسات الثقافية المشبوهة
التي افتضح أمرها نهائياً في الآونة الأخيرة . »

ومن أحد هذين الموقعين بطل على ركام أطول عام في تاريخ المنطقة

الحديث .. بعد عدوان حزيران .. ويعلق على هذا الركाम من مرصده
نوق الموضع .. نيقول :

(سميع القاسم : عن الموقف والفن) .

» .. في المجال الفكري حدث انعطاف جدي .. فقد تسلطت الاضواء
على نقاط الضعف والوهن .. ومسح كثيرون من الكتاب الصدا عن
اقلامهم .. وغسل كثيرون من الشعراء حناجرهم بنار النكسة .. وهذه
المعاناة الفكرية التي فجرها حزيران تنعكس في كبريات المجلات الادبية
والنظرية : كالاداب .. والكتاب .. والطليعة .. والهلل ..

ومثال آخر ذو دلالة هامة نجده في الشاعر نزار قباني .. فقد
زلزله حزيران من الأعماق .. وصنع منه انساناً آخر يجلد نفسه ويجلد
مجتمعه ومفاهيمه بقسوة تبلغ أحياناً درجة تعذيب الذات :

(من قمتم حزيران اخرج اليكم محروق اليدين .. محروق الصوت
والفكر والاصابع .. حزيران لم يترك في دنائنا ورقة واحدة غير مثقوبة ..
حزيران لم يترك كاتباً واحداً منا وراء طاولته .. احرق كتبنا وقلب مقاعدنا
ورمى اقلامنا ومحاربنا من الشبابيك .. حزيران كتس مستعمرات
العنكبوت في رؤوسنا ..)

في غمرة هذه الخضة المباركة يجب ان لا تنطمس حقائق جوهرية
تشكلت قبل حزيران .. فالنقد الذاتي العنيف وإعادة النظر الخارقة
ينطويان على خطر جدي .. خطر ضياع الملامح الحقيقية للمناخ الفكري
قبل النكسة .. فاصحاب رد الفعل المتطرف ينسون او يتجاهلون عامدين
— في زحمة حقنهم — الحقيقة الكبيرة المشرقة .. حقيقة وجود الأصوات
المميقة واليقظة في حلبة الفكر العربي قبل حزيران المدمر .. على امتداد
التاريخ العربي الحديث !.

إذا كان نزار قباني يصر على وضع جميع الكتاب والشعراء والمفكرين العرب في قارب واحد فانتنا نود أن نلفت نظره الى بعض ما نعلمه من حقائق في هذا الموضوع ...

وعلى أي حال يجدر بهذه النماذج أن تقنع شاعرنا نزار والذين يذهبون مذهبه بأن العالم العربي لم يعدم قط من دفعوا ثمناً باهظاً لكلماتهم وأفكارهم ... !»

هذه الاشارات من الدارسين والمحللين والنقاد تؤكد قيام المتمعين المتقابلين .. والمراصد المثبتة فوقهما للنظر الى حركات الكتاب والادباء وما يصدر عنهم من فعل وفكر أو فن وأدب وتقويم هذا النتاج في ضوء السلوك الحياتي لصاحبه !

ولعل هذين المتمعين أن يكونا قد ارتفعا واضحين في العقود الأخيرة من القرن العشرين في العالم العربي بعد وضوح حركات الالتزام والايولوجيات والاتجاهات السياسية والاجتماعية والمذاهب او المدارس الأدبية الحديثة .

أما في مطلع النهضة الأدبية فكان النقاد على غير بيئة من امرهم تجاه الأدباء وانتاجهم يسيبون أحياناً ويخطئون أحياناً في تقويمهم لأديب أو لانتاج أدبي . ولا يضعون أيديهم على مواطن الداء وقت التحليل أو التعليل لقد شغل استاذ الجيل طه حسين بالهم الكبير الذي اشتمل عليه طوال نصف قرن كامل . . فأراد أن يفتح للمصريين بخاصة وللعرب بعامة آفاق التفكير المتصل في أوسع مجالات الفكر والثقافة . . وعكف على ميادين الثقافة في أركانها الثلاثة: الركن الأول : منطلق الفكر العربي والثقافة العربية من ينباعها الأولى وقد وقف على تلك ينباع يتأملها ويحاول أن يرصدها وأن ينجرها وأن يزيل عنها ما تراكم على صدرها ويزيح عنها الشوائب وينقيها ويصفيها لتكون عذبة سائغة لا شائبة فيها تصرف الناس والأجيال عنها . . وكانت وقتها طويلة عند الحياة الجاهلية والأدب الجاهلي والشعر الجاهلي لتكون

منطلق الأجيال العربية من الدارسين المحبين للثقافة والفكر .
والركن الثاني : الأفاق الممتدة البعيدة في الطرف الآخر من الحياة
العربية .. فآخذ يرود المستقبل البعيد ، ويتطلع الى القمم المشرقة ،
ويستشرف الآفاق الرحبة .. فأراد للمصريين أن يرسموا خططهم الثقافية
في أرحب الساحات .. ومضى يرسم لهم مستقبل الثقافة في مصر على
أسس ديمقراطية صحيحة تهني الظروف التعليمية والثقافية والتربوية
لاوسع قاعدة جماهيرية كالماء والهواء .

والركن الثالث : قمتان شلهختان من قم التفكير الاجتماعي والأدبي ،
شغل بهما الدكتور طه حسين وجعلها منارتين للناس ، تتعان قима بين
هذين البعدين المتباعدين اللذين وصل بينهما بنهر حي متدفق .. هاتان
القمتان هما :

أبو العلاء المعري و ابن خلدون .. وأراد طه حسين للمصريين أن
يكون هذان النمطان مثلاً يحتذى في الشموخ والكرامة والصمود وسعة
الأفاق والحرية والفهم الواسع للأمور ! ثم أراد للعرب عامة أن يضعوا
عيونهم على الطريق الموصل الى الحضارة والقطاء والثقافة والحرية ..
طريق القراءة .. فأصدر لهم سلسلة (اقرأ) وأراد أن يزين لهم القراءة
وأن يؤلف قلوبهم الى المعرفة وأن يشدهم الى ما تشدد اليه الشعوب
للواعية المتيقظة التي تقوى على مواجهة التحديات .. فهو — وان بداهم
بالاحلام — إنما أراد أن يدلهم على أن الثقافة ليست جهداً ثقيلاً وليست
عبئاً كبيراً وإنما هي الى جانب ذلك متعة نافعة .. فطلع عليهم بـ « أحلام
شهرزاد » .. وهو الى ذلك كان يرى نفسه منتدباً لكل هذه المهمة .. فكان
يدفع بنفسه الى بؤرة القضايا وينتزع من برائتها القضية ويرشتها أمام
الناس في دائرة الضوء .. ويعيد على الناس قراعتها من منطلقات جديدة
ويسلط عليها موازينه الجديدة وزاوية رؤيته الجديدة ويقف منها مواقف
الجديدة . كان يؤمن بحق الشعب في أروع ما ينبغي أن يتهيأ للشعب الذي

يطمح في مستقبلٍ خير كريم .. كلن يؤمن بحق الشعب في الثقافة الواسعة
الرفيعة .. ومهما نُختلف معه في السبل فقد كان يعتقد صادقاً ان تيسير
القراءة والثقافة للشعب على نطاق واسع سبيل لازالة الفوارق بين
الطبقات ..

لقد كان هما من هبومه ازالة الفروق بين الطبقات .

لكن .. لكن .. لكن .. هل كانت السلطة المسيطرة .. وهل كانت
المؤسسات التي زرعها الاستعمار تخشى على نفسها من هذه الصيحات
المتعالية حول الحريات وحول الحقوق ! ؟ هل هذه الصيحات المثالية تمرقل
سير السيطرة والتحكم واهمال شؤون الجماهير ؟! حين تكون الصيحات
مثالية لا تدعمها ايدولوجيات جماهيرية ولا تحتضنها غلبة من الدبقات
الواقع عليها الظلم ولا تعمل على تعبئة الجماهير المظلومة .. ليس لها
فلسفة نظرية قابلة للتطبيق العملي تعينها على ان تنزل من سحب المثاليات
الى ارض الواقع الصلب .. حين تكون على هذا النحو معقلة في الفضاء ..
ستؤول في النهاية الى الاحباط لأصحابها .. حين يرون انفسهم متفردين
لا حول لهم ولا طول .. حدث مثل هذا لمن سبق طه حسين فآثر السلامة
وانطوى على نفسه ووجد نفسه معزولاً عن الناس وكان اسماع الجماهير
فيها حجارة لا تسع له ولا تفهم عنه .. فجعل يلوم الناس واحبا متوهما
.. وهو ان يكن في الموقع المحب لخدمة الجماهير لا يستطيع ان يكون في
فكره كبير نفع لهم .. فكانه من سكان الموقع المقابل من حيث النتيجة !

صحيح ان طه حسين متبرد منذ ساعات المواجهة الاولى .. غير
راض عن اساليب التعليم في الأزهر .. المنع لا يحول للتعليم .. وانتصر
على العمى وظفر بنور أسطع من نور المبصرين ولكن استناده الى فلسفة
(ديكرات) وحدها لم يسعفه في الأزمات الحادة .. صحيح انه انتصر على
المعوقات الاولى :

(قال له والده : اقسّم لابسكتك في القرية .. ولا تطلعنك عن
الازهر . ولا جعلنك مقيها تقرأ القرآن في المآتم والبيوت !)

ولكنه ينتصر على فقهاء الريف .. ويهاجم الكرامات في وجوههم لا
يخشى من ان ينهم بالمروق .

ولقد واجه سطوة القديم .. واثار القلق لدى من ينصبون انفسهم
حراسا على التراث وحماة له .. ازاء الدعوة لمراجعة كل شيء والبدء من
جديد .. انه تبرد على الخلطين بين البحث العلمي والتقليد .. وانه التزام
بمقلاتية التفكير .. من هنا كانت عنايته بابن خلدون .. وبالخوارج ..
وبالزنج .. وبديكارت .. وبالمعذبين في الارض :

« .. اريد ان اصطنع هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت
للبحث في حقائق الاشياء في اول هذا العصر الحديث والناس جميعا يعلمون
ان القاعدة الاساسية لهذا المنهج هي ان يتجرد الباحث من كل شيء كان
يعلمه من قبل وان يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا
تأباً .. »

http://Archivebeta.Sakhril.com
« ... من الذي يستطيع ان يكلفني ان ادرس الادب لآكون مبشراً
بالاسلام او هادماً للالحاد وانا لا اريد ان ابشر ولا اريد ان اناقش
الملحدين !؟ .. »

وحين يقول له الشيخ بخيت : « .. ولكم تدرسون (الكامل)
للمبرد ، وقد كان المبرد من المعتزلة ، فدرس كتابه اثم « يبدأ فراق
طه حسين الوجداني للازهر ، كما يقولون .. وذلك في اللحظة التي يعلم
فيها الشيخ سيد المرصفي انه غير قادر على المقاومة وانه (عاوز ياكل
عيش) !

ومن الهزات التي واجهها كذلك ما اصاب الاستاذ الكبير منصور

نهمي حين نشر رسالته عام ١٩١٣ في باريس حول (حال المرأة في التقاليد
الاسلامية وتطوراتها) بالفرنسية وكان استاذ المشرف (ليثي برول) ..
فقد فصل منصور نهمي بسببها من الجامعة .. وتبرأت مصر الرسمية
من كتابه .. وطورد في حياته الخاصة والعامة .. فانتكس واستسلم ..
وتخلّى عن المواطنة في موقع المقاومة الصلب . وانزوى يعمل في صمت في
مجالات بعيدة عن تخصصه يكبت خواطر مؤلمة ! .

وحين سئل طه حسين عن رايه في رسالة منصور نهمي (وكان طه
طالباً في الجامعة المصرية وقتئذ وكان السائل احد المسؤولين عن الجامعة)
قال طه حسين : كنت اظن انني في الجامعة حيث لا يحاسب الناس على
آرائهم فاذا انا اراني في الأزهر لا أسأل عن رأي نفسي وانها استفتى في
رأي غيري من الناس .

ولكن طه حسين ينتهي الى التخلي عن مواقف المقاومة كما تخلّى من
قبله المرصفي فحنة العقل تصيبه كما أصابت الطهطاوي .. واصابت ..
 واصابت .. فلا يثبتون لها ..

وآمال النفوس مملات ولكن الحوادث يعترضنه !

ولعلم احسوا في مصر بمحنة الحرية .. حين كتب قاسم امين يقول
في اوائل القرن :

« .. الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج
كل فكر في البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأن لا وطن له ويطعن على
شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ويهزأ بالمبادئ التي تقوم عليها حياتهم
العائلية والاجتماعية .. يقول ويكتب ما شاء الله في ذلك ولا يفكر احد ولو
كان من الد خصومه في الرأي أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى
كان قوله صادراً من نية حسنة واعتقاد صحيح .. كم من الزمن يمر على
مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ ! » ..

ونحن لا نريد أن نناقش هذا المفهوم المثالي للحرية التي تقصد لذاتها
لا لخدمة الناس .. بل لارضاء الذات الفردية .. ولكننا نشير الى هذا
الفكر الذي راج وروج في أوائل العصر .. ولم يحم دعائه لأنه فكر منقطع
عن الجماهير وهموم الجماهير !

ولكننا نشير الى ان التشكك في بلوغ الحرية استمر حتى بعد سنة
١٩٥٢ .. فحين يحاول مله حسين الدفاع بجيء دفاعه غير قادر على نفي
وجود المحنة .. محنة الحرية بل يؤكداه من حيث لا يقصد :

« ... ويزعمون أن أدب الثورة لم يوجد بعد .. مع أن الثورة قد
تسببت منذ أكثر من عام .. والذين يقولون هذا الكلام ينسون أو يجهلون
أن الأدب يمهّد للثورة وينشئها ويشبّ جذوتها في النفوس بما يلقي في قلوب
الناس من الآراء الجديدة وبما يصور لمقولاتهم من القيم المستحدثة .. وحين
ينقل أنواقهم من طور الى طور وحين يبغض اليهم القديم من أوضاعهم
الاجتماعية ويدفعهم الى تغيير الأوضاع ، انما الأدياء قوم يطمون ، والثورة
تعبير وتفسير لأحلامهم » (مله حسين : خصام وثقد) .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هكذا فان صدق هؤلاء المصلحين وحسن نيتهم ودعوتهم المخلصة لم
تستطع ان تجعل منهم مواطنين مطمئنين آمنين في موقع المقاومة لانهم لا
يستندون الى فكر ثوري اجتماعي مرتبط بالجماهير .. بل استندوا الى
معايير فردية ذاتية توهم بالقيم المطلقة ! لهذا وجدوا انفسهم في الأزمات
وحدهم ولم يجدوا من حولهم حماة مناصرين !

بل ان دعواتهم الإصلاحية لم تتجاوز النقطة التي وصلت اليها دعوات
أمثالهم السابقين مثل حسن الدرويش الموالي الذي سبق طه حسين
بقرن وربع القرن .

(الجبرتي : عجائب الآثار) ..

ان مثل هذه الدعوات لا تمس الا المناطق العليا في التركيب الاجتماعي .. ولهذا لا تحدث اثرها المرجو في تحرير الشعوب ووطنيا او اجتماعيا لان ثورات التحرير تتم من القاعدة وليس من اعلى حيث التغييرات الجذرية في ملكية وسائل الانتاج وفي علاقات الانتاج .. انها تحدث « بقيادة الطلائع الثورية التي تمثل الشعب وتتمتع بثقة الشعب » ..

(محمد عودة : هذا الاقتراء على الناصرية) ..

ولكن هذه الدعوات تشكل عاملا مساعدا لقيام الثورات الاجتماعية من هنا فهي تنتمي الى موقع المقاومة وان لم تكن ثمراتها من نتائج هذا الموقع ! ..

ولعل قرب المكان المادي من الموقع المقاوم ان يعين على وضوح الرؤية .. بينما البعد يغطي العينين بفشاوة .. فحين يكون الفكر « ترفا اكاديميا متعاليا غريباً عن حركة الحياة من حوله لا ييصر صاحبه بمواضع الخطأ والزلل .. بل يزين له الانزلاق والتوقع في الشبهك ..

من ذلك ما وقع للفيلسوف (لطفي السيد) حين اقيمت في فلسطين حفلة افتتاح الجامعة العبرية .. وحين قدم اللورد بلفور بنفسه ليشهد حفل الافتتاح .. فقد جاء (احمد لطفي السيد) مندوباً عن الحكومة المصرية سنة ١٩٢٧ ليشترك في ذلك الاحتفال بينما وقف الشعر والشعراء في فلسطين نفسها لينبهوا الفيلسوف الكبير بما تفعله مَعْلَكْتُهُ في نفوس الناس والشعراء والمواطنين .. فخطبه القاضي اسكندر الخوري البيتجالي شعراً بقوله :

الله اكبر كل هذا في سبيل الجامعة !

ما تلك جامعة العلوم بل المطامع جامع جامعه !

ان السياسة اوجنتها والسياسة خادعه !

من لندن هرولت تضم نار هذي الواقعه
يا لورد ما لومي عليك فانت اصل الفاجعه
لومي على مصر تمد لنا اكفا صافعه
يا (سيد) قد جئنا وقلوب قومك هالعه
وشهدت جامعة المطامع لا العلوم النافعه
ارايك كيف تحيط بالعرب الذئاب الجاعه
لو جاء هذي الارض (احمد) قبل يوم الجامعه
لراى فلسطينا تقيم له المحافل ساطعه
ولهرولت من كل حذب للقاء مسارعه

.....

نشكو لكم منكم بني مصر ظروف الواقعه
اوهنتم الاعضاء انا امة متقاطعه
لا تشمتوا اهما غدت فينا وفيكم طامعه

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

لقد كان الشعر الفلسطيني في مضمونه يعي الدعابات الثلاث التي
اقامها الاستعمار للكيان الصهيوني :

(١) الدعامة الاولى — التنظيم الاداري — تقوم به الوكالة اليهودية
المؤسسة في سنة ١٩٠٨ م .

(٢) الدعامة الثانية التنظيم المالي — يقوم به الصندوق اليهودي
القومي .

(٣) الدعامة الثالثة — التنظيم الفكري — تقوم به الجامعة العبرية .

ولا يحتاج الامر الى كبير عناء لدى الفيلسوف الكبير احمد لطفي السيد
حتى يتبين خطورة ما فعل . . فلا يحتاج الفيلسوف الى استقراء كفاية

العناصر حتى يستبين ظاهرة من الظواهر كهذه الظاهرية مثلا :

الدعامة الفكرية للتنظيم الصهيوني وخطرهما على الحياة العربية في فلسطين بخاصة وفي العالم العربي بعامة .

ان الفيلسوف يستطيع ان يدرك وان يحسد هذه الظاهرة دون استقراره للعناصر كافة التي تندرج تحت هذه الظاهرة .

ولا يحتاج الكشف عن المواقف كبير عناء فاذا اراد احد ان يستبين الموقع الذي يصدر عنه كاتب مسرحي له دوره الخاص .. واتجاهه المعين .. وكان قد ارسى قواعد هذا الفن في القاهرة اذا اراد احد ان يستبين الموقع .. فليض مع رائد هذه الحركة المسرحية في مصر .. وليتنبه الى ما اعد نفسه له وما اعد له الذين وقع اختيارهم عليه لهذا الدور .. وما اعانت عليه الظروف الموضوعية في هذا الشأن .. لقد اعد ليكون خبيرا بنفوس الناس وبميدان واسع من ميادين الحياة وهو ميدان الصحافة .. لا سيما الصحافة الفكاهية الساخرة المرّة .. التي جعلت منه فنانا ذكيا ساخرا .. يقوم بالخطوات الاولى الراسخة في طريق الجهود المسرحية بعد حوالي عشرين عاما من الخطوات الاولى التي قام بها مارون النقاش في بيروت ..

وكان الناس في منتصف القرن التاسع عشر يفتشون ويحسون بشيء من الفخر حين يتقدم اليهم في بيروت رجل من ابناء وطنهم بهذا الفن الجديد وكان الناس في دمشق يحسون كذلك بهذه النهضة وذلك الفخر حين يتقدم اليهم دمشقي من بينهم بهذا الفن الجديد .. وكذلك احسن المصريون وهم يتحسسون شخصيتهم ، ويتلمسون معاني قوميتهم .. بأن رجلا من ابناء بلدهم او من الناشئين في جنات هذا الوطن قد قام بجهود الاولى في هذا الشأن . ولم تكن الحساسية آنذاك تمس تضللا النسب الاصيلي .. لمبالغ من ان يعقوب صنوع ابن لابوين يهوديين .. الا ان ذلك لم يثر حوله الشكوك وتقدّك ، بل راوا فيه « ابنا من ابناء البلد .. ذكيا .. فطنا .. صائب الرأي

حاضر النكتة .. اشتهر باسم (أبو مضارة) .. حيث كان يريد أن يبرز
وظيفة الناقد التي نهض بها .. » ..

(انور لوتا : سلسلة (كتابي) عدد ٧٦ / يوليو ١٩٥٨) ..
وقد ولد يعقوب عام ١٨٢٩ .. وكان أبوه في خدمة الأمير أحمد يكن
حفيد محمد علي .. فأتاح للولد أن يطلع على مختلف الثقافات .. ودرس
ما يدرسه أبناء اليهود عادة في مختلف بلاد أوروبا قبل أن يتخصصوا في
فن من الفنون .. درس تعاليم التوراة .. وتعاليم الانجيل .. وتعاليم
القرآن .. ومن هذا الدرس المقارن تفتحت لديه طاقات نافذة .. لفتمت
اليه الأمير يكن .. فأرسله الى ايطاليا ليدرس على نفقة الأمير .. وهناك
أتيحت له الفرص ليضيف الى ثقافته الأولى في مصر بعداً ثقافياً جديداً من
ايطاليا .. كما أتيح له بعد ثقافي آخر من الثقافة الفرنسية .. واصبح
يجيد العربية .. والانكليزية .. والالمانية .. والبرتغالية .. والاسبانية
.. والمجرية .. والروسية .. والبولونية .. والعبرية واليونانية ..
هذا الى جانب الإيطالية طبعاً .. والفرنسية .. والفركية .

ومن هنا نحصل انما كان بعد ثقافته .. أو بعدة الآخرون لدور كبير ..
ومن هنا لا نستغرب كثرة الصحف التي انشأها . (فيليب دي طرازي :
تاريخ الصحافة العربية) .

وحين عاد من ايطاليا أخذ يعلم اللغات لأغصان العائلة الخديوية
وأبناء الأعيان .

وقد أصبح الشيخ جمال الدين الأمفاني والشيخ محمد عبده من
أصدقائه .. وقد درسا عليه شيئاً من اللغة الفرنسية .. وحين جمعت
الظروف بين الثلاثة لانتقاد أعمال الخديوي اسماعيل خططوا لإصدار
صحيفة عربية سنة ١٨٧٧ .. وتولى ادارتها يعقوب صنوع وسماها (أبو
نظارة زرقاء) وكانت أولى الصحف الهزلية عند الناطقين بالضاد ..

فانتشرت في أربعة اقطار المعمورة .. وكانت باللغة الدارجة عند عامة المصريين .

ولعل مما يشير الى الدور الذي كان ليعقوب صنوع انه كان يحتمي بالتفصيلات الاجنبية التي كانت ترعاه ويؤمن له الاختفاء فيها حين يرتكب ما يقتضي العقاب عليه .. وتؤمن له الحماية .. وكأنها كان من رعاياها او عيناً لها .. من ذلك ما حدث للخديوي اسماعيل بسببه .. حيث امر الخديوي بطرده من البلاد .. وأراد أن يتثبت من عملية خروجه الفعلي . فمرّ بعربته أمام رصيف الميناء في الاسكندرية .. وهذا يشعر بما لدى يعقوب من نفوذ .. حيث خشي الخديوي الا ينفذ الأمر بطرده .. وحينذاك رأى الخديوي الوفداً من الناس يخرجون في وداع يعقوب .. وقد أخذ بعضهم يصيح :

« — انظر يا أبو النظارة الزرقا كيف جاء شيخ الحارة (وشيوخ الحارة هو اللقب الذي أطلقه أبو نظارة في جريدته على الخديوي اسماعيل) ليشتفي منك ويراك بعيته مخفياً من البلاد ! » ..
فخاطبهم يعقوب قائلاً :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

« — بعد سنة ينفى هو مثلي من مصر ! » وفي الواقع خلع اسماعيل من سرير الخديوية بعد سنة من التاريخ المذكور !

وهذا بعض مما جعلنا نحس بأنه كان يعمدّ لاداء دور سياسي أو ادوار في المنطقة على جانب كبير من الخطورة ! .

ولقد اتاحت له الاقامة في باريس فرص الاتصال الواسع بميادين مختلفة ثنائية واجتماعية وسياسية .. ففي سنة ١٩٠٠ القى في معرض باريس تحت رئاسة السيد ابن السلطان عمر الهنزاوي خطبة بحشر لغات مختلفة رددت صداها جرائد العاصمة الفرنسية وحمل على اذرع المسلمين في موكب حافل الى ساحة برج ايفل .. وعزفت الموسيقى وهتف القوم

بالتشديد الفرنسي والخبديوي .. وفي تلك السنة دعاه شاه العجم الى ضيافته واهداه وساباً عالياً وخاتماً ثميناً .. وكان يزوره الرؤساء والسلاطين في بيته في فرنسا .. من ذلك زيارة الخديوي عباس الثاني له سنة ١٩٠١ .. وسواه .

وكانت علاقاته قد منحته القابا اضافها عليه السلطين والملوك .. فهو (مولير مصر) منذ اطلق عليه ذلك خديوي مصر .. اسماعيل .. وهو (صديق الاسلام) كما لقبه السلطان عبد الحميد الثاني .. حين زاره في القسطنطينية سنة ١٨٩١ .. وكان قد قام بدور الوسيط بين السلطان وبين رئيس جمهورية فرنسا .. فنال لقب (صديق فرنسا الكبير) .. من حكومة فرنسا .. واحرز لقب (شاعر الملك) من شاه ايران .. ومنح لقب (كوكب الشرق) من سلطان الهنزوان .. واطلق عليه الخديوي عباس الثاني لقب (الوطني المخلص) .. ومنحه امبراطور البرازيل لقب (مقوي الرابطة الاخوية العامة) ..

كل ذلك يشير الى دوره المتين في المنطقة والتي علاقاته وروابطه وسفاراته وزوراته لدى الملوك والرؤساء .. والادوار التي كان يقوم بها في هذه المجالات .

وقد حرص على معايشرة عناية الشعب والتغفل في صميمهم ومخالطتهم ومعرفة تراثهم الشعبي والتردد على مقاهيم البلدية وحضور ندواتهم واسماهم .

لقد كانت السنوات السابقة لثورة عرابي في مصر .. سنوات حافلة عاصفة ذات زخم في جميع المجالات .. من هنا نحن لا نستغرب حين نرى هذا النشاط الواسع الذي يتمثل في جهود يعقوب السياسية والاجتماعية والصحفية .. لا نستغرب أن يكون اتجاهه للمسرح نابعاً من هذا التخطيط! ففي سنة ١٨٧٠ م انشا يعقوب صناع اول مسرح عربي في القاهرة ..

على حد قول طرازي .. بمساعدة الخديوي اسماعيل .. الذي منحه لقب (مولير مصر) وشجعه على عمله وشهد مراراً تمثيل رواياته .. وحين حلت الجفوة بينه وبين الخديوي اسماعيل .. امر الخديوي باخراجه من البلاد .. ولكن الظروف تهيأت له خارج البلاد على نطاق اوسع .. وكان له دور في الخارج اكبر .. واستأنف اصدار صحفه في باريس .. وكانت مجالات العمل لديه متعددة .. وعاش حياة صاخبة عريضة ذات زخم سياسي واجتماعي .. وقد كان من قبل داعية لتنصيب الأمير (حلیم) ابن محمد علي حاكماً على مصر .. وكان حلیم يعيش في المنفى في تركيا حيث نفاه الخديوي اسماعيل .. وبقي حلیم يستند يعقوب ويمده بالمال ويدعمه في الخارج .

وهكذا كان يعقوب صنوع أداة ذكية تحركها اصابع خارجية بحيث يكون لصنوع دور بين قوتين متصارعتين :

الأتراك والفرنسيين من جهة .. والإنكليز من جهة متابلة .. وكان الأمير حلیم في جانب الأتراك والفرنسيين .. بينما كان الخديوي اسماعيل في جانب الإنكليز : <http://Archivebeta.Sakhril.com>

من هنا كان كل هذا البأس الذي يظلمه صنوع بين تلك القوى المتصارعة .. حيث كان الاداة المنفذة .

ولعل ذكاء صنوع واستعداده وما اتبع له من فرس .. كل اولئك مكن له من اعظم فنين جماهيريين : وهما الصحافة والمسرح .. ولقد استقى هذين الفنين من اعلى اعماق مصادرهما .. وتمكن من اسبأبهما وكان منه المسرحي امتدادا لفنه الصحفي .. وفنه الصحفي امتدادا لفنه المسرحي !

ولم يكن صنوع يثقل كاهل نفسه بثقلات تأتيه من القيود او الاعباء

الاخلاقية او القومية او التراثية او الدينية .. فلم يكن يعبا بشيء من ذلك .. فانطلق في سبيله الفنية متخففا من كل هذه المعوقات التي لم يكن يسهل التجاوز عنها في مثل هذه الظروف .. حتى قيود اللغة تخفف منها !

ولعل الدسائس التي كانت تحاك .. كانت على مرأى ومسمع من يعقوب صنوع .. بل كان طرفا فيها واداة من ادوات تنفيذها حين اتخذ لنفسه موقعا مواجهها من سلطة اسماعيل وجنح الى جانب حليم ومن يسندونه .. وكان صنوع يتخذ من الناس موضع اثارة ليضمن لفريقه الفوز بالسلطة .. ومن هنا كانت ابره تبدو نافذة .. ومن هنا كانت يده تبدو طليقة .. ومن هنا كانت الحرية لديه مضمونة في نهاية الامر .. فما كانت السلطة تخشى منه ان يثير الشعب من اجل مصالح الشعب .. بل هو يثير الشعب والجواهر من اجل ضمان السلطة لموقع من السلطة مواجه لموقع اسماعيل واعوانه .. من هنا كان منطلقه !

ففسى مسرحية (ملعوب الحق) تجسد يعقوب صنوع يرمز الى الخديوي — وهو الذي كان يعرف بلقب عزيز مصر — باسم عزيز او غلو السنجق .. ونجد يعقوب يشير الى الاسماء برموز يسهل على الناس إدراكها كأن يلقب هذه الاسماء .. فيثير بذلك عاصفة من الضحك لدى الجمهور في كل مسرحياته : فتوفيق يتحول بين يديه الى (توقيف) ونوبار يتحول الى (غبار) .. وحسن وحسين .. ابنا اسماعيل .. يتحولان الى (نحس ونحسين) ... وهكذا !

ولقد كان قادرا على استقطاب اصحاب التأثير في المجتمع فمجلته (ابو نضاره) التي كان يصدرها في منفاه في باريس كان من بين المشتركين فيها (احمد عرابي) والشاعر الوطني (محمود سامي البارودي) وغيرهما . ومن هنا كانت طاقته السياسية وارتباطه بموقع سلطة مواجهة لموقع سلطة آخر مجالا واسعا يوسع من ابعاد فنية : الصحفي والمسرحي

.. ويوجهها في خدمة ذلك الموضع .. وقد نفخ ذلك في حبه لذاته فلم يكن
ينترك فرصة من غير أن يعلن عن هذه الذات في ختام مسرحياته !
ومسرحيات (حريم الخديوي) مليئة بالفضائح وتعرية الخديوي ..
وبما كان يجري من فساد يحيط به ويشتمل على كل جوانب الحياة التي كان
يحياها !
ولعل دور صنوع السياسي يكشف لنا عن رؤيته خاتمة اسماعيل
والثورة العربية في مسرحية (شيخ الحارة) !

هذه الثقافة الواسعة التي هيئت لصنوع .. وهذه الحرية التي
منحت له .. وهذه التجارب التي مكن منها في القصر .. وهذه الخبرة
المصحفية التي اتاحت فرصها .. وهذه المعرفة الواسعة بطبيعة الشعب
المصري والجماهير المصرية وتاريخها الطويل .. وهذا الاستخدام الواسع
للمرح والفكاهة والسخرية .. كل أولئك دفع به لكي يتخذ من الفكاهة
مهرباً .. بل وسيلة اثارة ليعكس الجمهور الى جانبه وجانب من يناصر
في معركة السلطة لقد كان يعقوب صنوع يتلهى بهيوم الناس ويشللى
بضياهم ويستغلهم لا لينتزعوا لأنفسهم حقاً .. بل لينتزعوه لموقع سلطة
آخر يتحكم في رقابهم !

من هنا ينبغي أن يؤخذ مسرح صنوع في حذر ولا سيما من حيث
الغاية التي كان يهدف اليها .. ومع ذلك فقد دفع صنوع بالسياسة الى
بؤرة الأحداث الاجتماعية دفعا فنيا كبيرا !

ويتضح امر الموقع الذي اتخذه صنوع من الجماهير الشعبية حين
يوضع في مواجهته موقع آخر متوقد الذهن صاحبه شديد البأس .. واضح
الدليل .. قوي الحجة .. لا يبدأ عملا من أجل الجماهير حتى يشتد
الحصار عليه ويفصل من وظيفته .. ويحاط بظروف قاسية ولا يمكن من
اية فرصة للعمل الرسمي أو الحر .. حتى يلزمه الإفلاس . وينبه اسمه

في مجال الصحافة والكتابة والخطابة .. ولكن الوشاية به لدى السلطة تشدد حتى يفصل من الجمعيات الخيرية التي يؤلفها هو .. ويسخر الفكاهة والسخرية من أجل خدمة الجاهل وحمل همومهم .. وينشئ من أجل ذلك جريدة (التنكيت والتبكيث) .. ويخطب في سبيل الناس .. ويحمل همومهم .. ويكتب الرواية والشعر من أجلهم .. ولا ينحرف عن هذا الخط .. ويلاتي في سبيل ذلك ما يلاتي من أهوال .. ومطاردة .. وتشريد .. وتوضع الجوائز للعثور عليه حياً أو ميتاً .. ويختفي .. ويظل يتتبع أخبارهم خلال سنوات اختفائه التسع .. » واتخذ هذه المتاعب وسائل لهذه المقاصد التي وصل اليها بعناء .. وكسبه نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبا ، وتوجته بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء .. فصورته تري هيئة أبناء السبعين وحقيقته لم تشهد من الأعمار إلا تسعة وثلاثين !

وحين يصبح عمر قادر على افتتاح الجمعيات والمدارس وقد بلغ الخمسين من عمره .. » وحتى لو سمحت له صحته برحلات جديدة يفتتح فيها الجمعيات والمدارس ، فهل يسمح له الانكليز ؟ ولم يبق أمامه سوى أن يجعل من مجلته مدرسة بلا أسوار ، وبأجر زهيد ، وهو وحده كل من فيها من المعلمين ، وأن يجعل من قضية الشعب مرة أخرى مشكلته الشخصية ودرسه المفضل وأن يمزج على طريقته بين ما يريد أن يقوله وما يريد الناس أن يسمعوه فيعيد في صحيفة (الاستاذ) شخصياته القديمة التي عرفها الناس في حواريات (التنكيت والتبكيث) .. تعود تلك الشخصيات لتواصل من جديد مسيرتها التي تأخرت بعض الوقت .. عادت الى الحياة هذه المجموعة من صغاليكه وشخصياته .. (حبيب والمعلم حنفي وسعيد وبخيتة وحنيفة ولطيفة وديميانة وزبيدة ونبوية وعمارة والزناتي) : فلاحون وصناع وخدم وزوجات وأزواج

وبينات وتلاميذ ! شخصيات قديمة وشخصيات جديدة تنتثر وتتشاجر
وتشكو وتضحك وتعماني وتمكس مشكلات الحاضر والماضي وتبحث عن
طريق للخلاص !

كل هؤلاء هم جيشه قبل أن يصبحوا جيش الدولة .. ادانته لتحقيق
الثورة والتقدم ، وإذا كان جيش الدولة قد هزم .. وإذا كانت الدولة الآن
خاضعة لجيش الاحتلال فأى شيء يمنعه من أن يعود لقواعده ؟ من أن يجمع
فلول جيشه الشعبي ! لكن لاية معركة ؟ للدفاع عن انفسهم ! ففى الواقع
ان جيشه الشعبي قد تعرض هو الآخر لهزيمة من نوع اشد ! ذلك ان
الدولة التي هزمت الجيش المصري في (التل الكبير) لم تتقنع بهذا النصر
العسكري ، لقد خلع الأوروبي المنتصر خوذته ، ووضع سلاحه جانباً ،
وارتدى بذلة من نوع رديء ، وتنطق بهزيلة بيضاء ، وتسلك الى مراكز
مصر وقراها يفتح هنا وهناك محلاً تجارياً يعرض بضائع أوروبا ، وبجواره
برميل من الخمر الرديئة ، وأمام الدكان بضعة مقاعد من القش سوف
تكون نواة لمقهى تخدم فيه زوجته أو ابنته زبائن من القرية أو المدينة، وبجواره
ايضاً خزانة حديدية سوف تكون نواة لبنك صغير ، يجمع رأس ماله من زبائن الدكان
والمتقى ثم يعيد اقراض نفس الزبائن الاموال بأفطع نسبة من الربا ، وفي
وقت قريب يصبح هذا الوافد الغريب المالك الحقيقي لأرض القرية وعقار
المدينة .. كانت البذرة التي بدا صاحب هذا الموقع المواجه للموقع الآخر
حربها في الماضي قد أصبحت غابة مظلمة ، وكان جيشه الشعبي قد أوشك
ان يفقد ثروته ، وهى سلاحه ، ثم انه يوشك الآن أن يفقد شخصيته
وطولته ، وتديبا كتب : (ان من فقد المواطن فقد الوطن) . واذا كانت هذه
المجموعة من صغاليكه وشخصياته تصنع في النهاية شخصية مصر ، فقد
كانت مصر تفقد هذه الشخصية عاماً بعد عام ، ودون حرب وهي تلبس ،
وهي تاكل ، وهي تتكلم ، وهي تتعلم ، وهي تشتري ، وهي تبيع ، وهي

تسخر ، وهي تهرح ، ! وكان عليه أن ينقذ هذه الشخصية من الاحتلال
لتصبح قادرة على مواجهة الاحتلال وصنع التقدم » .

(أبو المعاطي أبو النجا : العودة الى المنفى : حياة عبد الله نديم)
لعل القارئ أدرك من كل هذا الوصف لهذا الموقع أن الذي كان
يمتدح فيه بقوة وثبات هو الكاتب المناضل عبد الله النديم .. ليرى كيف
أنه حين يقف واحد الى جانب الجماهير الشعبية تتألب عليه كل القوى
المسيطرة .. وتشرده وتنفيه .. وترصده .. وتحاصره .. ولا تهمل
له أية فرصة كي يتمكن من تخليص جماهيره !

من هنا ندرك الفرق بين الموقعين في هذه الظروف : موقف صنوع
وموقف النديم !

وينطلق من الموقعين زوايا رؤية تكشف عن الموقع الذي انطلقت منه
الرؤية .. فقد يتلمس عمل أدبي أو مسرحي أية زاوية في الإطار الاجتماعي
ويجعلها مدار اهتمامه !
أما مدى اهتمام الجبهة بهذه الزاوية فيعتمد على الوعي والعمق
ونوع الموقف الذي يثيره المؤلف !

بل أن القدرة على اجتذاب الجمهور لموقف من المواقف في العمل
المسرحي وشدهم اليه نابعة من زاوية الرؤية التي ينظر بها المؤلف
المسرحي لقضية من القضايا .

حتى حين تكون القضية التي يجعلها المؤلف محور اهتمامه واهتمام
الجماهير فترة من التاريخ الماضي .. السذي انقضى .. واتضحت كل
أبعاده .. يمكن أن تتجدد زاوية الرؤية حسب التركيب الاجتماعي المتجدد
الحديث .

فلو اتجهت عناية مؤلف مسرحي الى معركة القادسية فان هناك عدة

زوايا للرؤية يمكن أن يختر من بينها المؤلف .. وينتهي إليها .. ويشد نحوها جمهوراً من الناس !

ماذا كان التركيب الاجتماعي للمجتمع قائماً على النظرة الميتافيزيقية .. وأراد الكاتب أن يتجه أو ينتمي الى هذا الاتجاه فانه سيجعل زاوية الرؤية تتخذ البعد الميتافيزيقي في أن النصر الذي تم للعرب كان ثمرة الايمان بالقوة الغيبية التي تعين المؤمنين من المنتهين إليها .. مما رمى الفرسان العرب حين رموا أعداءهم ولكن الله رمى .. ولا بد أن يكون الله قد أرسل جنوداً لم يروها .. !

زاوية الرؤية هذه .. وتثبيت الايمان الغيبي في القلوب .. والاعتقاد على قوة السماء .. والتهوين من أمر الجهد الانساني على الأرض .. كل أولئك يشكل موقفاً يكشف عن انتماء المؤلف لفكرة من الأفكار .. أو عن انتمائه لتركيبة اجتماعية معينة .. بل يحدد خيوط الزمن الذي تنتشر فيه مثل هذه الاتجاهات .. مهبطاً يمر على الحياة من زمان أو بطوح بها المكان !

زاوية الرؤية هذه تشد لها جمهوراً ما .. في مكان ما .. في زمان ما .

ولكن الموضوع الكبير معركة القادسية يمكن أن يتناولها مؤلف مسرحي آخر .. له موقف منه آخر .. غير هذا الموقف الميتافيزيقي .. بل هو ينتمي الى تركيب اجتماعي آخر .. يتعاطف معه ويرتبط به .. فتكون زاوية الرؤية لديه غير زاوية الرؤية لدى المؤلف السابق ! انه ينظر من زاوية رؤية أخرى .. حيث يرى الصراع بين مجتمعين كبيرين .. بين دستورين مختلفين .. بين نظامين آخرين .. الاول نظام عنصري استبدادي متسلط مستغل يستغل الانسان ويستعبده ويسخره في سبيل مصلحة الفئة المتسلطة وحدها ويدوس على كرامة الانسان المواطن وعلى حريته وانتاجه ويحواله الى رقيق أو عبد أو مسخر ! هذا المجتمع

المستغل المتسلط المستعبد يقف وجهاً لوجه أمام مجتمع ثان جديد .. له قيم جديدة .. ومبادئ جديدة تقوم على احترام الإنسان للإنسان وعدم استغلال الإنسان للإنسان .. بل تقوم على مبدأ الرفع من شأن انسانية الفرد وكرامة الفرد وحرية الفرد وتحوله الى كائن حسي يواجه مصيره بارادة وحرية وعدالة وكرامة .. مجتمع كهذا يتحقق لديه الثمار التي يجنيها خط السير التاريخي الطبيعي السذي يتجه وجهته الصحيحة .. فينتصر المجتمع المحرر لانسانية الانسان على المجتمع المتسلط المستغل المستعبد لانسانية الانسان ! وهذا ناموس طبيعي في خط السير التاريخي .. يقوم على كرامة المواجهة وعلى الاعلاء من شأن الجهد الانساني والتصميم الانساني والارادة الانسانية التي تعترز ان يكون مصرها ملك يدها ! الانسان الحر القادر على الانجاز والفعل هو العنصر الحاسم في المعركة .. انه يقوم بالفعل من اجل حريته وحرية غيره .. انه العنصر القادر على التضحية .. ! انه يرمي عدوه في ثقة بنفسه وبقدرته ويانتصره !

وهذه الزاوية من الرؤية ثمرة من ثمرات التركيب الاجتماعي الآخر .. في اطار زماني آخر .. والانتفاء الى هذه الزاوية يحدد نوعية هذا التركيب ! ان سرعة التغير في التركيبات الاجتماعية على مر التاريخ لا يفقد هذه الزوايا من الرؤية قدرتها على الاستقطاب وكشفها للمواقع التي تنطلق منها .. بل إن سرعة التغير تكاد تغري بالاهتمام المتزايد بزوايا الرؤية هذه .. تلك الزوايا التي تكشف عن مدى عمق الكاتب وتلقي اضاءه على مدى وعيه وتوضح انتماء وفهمه لطبيعة المجتمعات ! وزوايا الرؤية هذه لا يحول دونها تغير او زمان او مكان او محور اهتمام .

ومن هنا كانت هذه زاوية الرؤية مهمة للناقد كي يتبين من خلالها المواقع التي تخرج منها !

ولعل وقفة عند واحد من أعمال أحد الكتاب المسرحيين أن تتكشف عن زاوية الرؤية والمواقف والمواقع والانتفاء والفكر الفلسفي الذي ينطلق منه والمدرسة الأدبية التي ينتسب إليها .. فتتجدد حينئذ اتجاهاته وحركة سيره وسلوكه وموازنه ومعايره وقيمه التي يتعامل بها !

ونختار من أجل التطبيق مسرحية (بيجماليون) وصاحبها توفيق الحكيم :

تقع (بيجماليون) الثلاثة من بين المسرحيات الذهنية التي كتبها الحكيم بعد عودته من باريس .. تلك العودة التي كانت في صيف ١٩٢٨ . وهذه المسرحيات حسب ترتيبها هي : (أهل الكهف — ١٩٣٣) و (شهرزاد — ١٩٣٤) و (بيجماليون — ١٩٤٢) .

ومن السهل اكتشاف أن خيوط هذه المسرحيات أخذت تتجمع بين يدي توفيق الحكيم في السنوات الثلاث التي قضاها في باريس عاكفا على منابع الثقافة الفنية والأدبية والفكرية التي كانت تزدهر بها فرنسا في ذلك الوقت .. وكأنها أحس بأنه لا يستطيع أن يواصل حياته في « دنيا العوالم والممثلين والمطربين والممثلين » ، ولم يحفظ لنفسه خط الرجعة إلى مسرح كان يقوم على الترجمة والاقتباس أيام أن كان في مسرح عكاشة حين وجد نفسه في داخل مجموعة يصنع ما يصنعون دون أن يلتفت إلى واحد منهم بالذات ، كما قال ذات مرة !

في ذلك الوقت كان الحكيم يبحث عن نفسه في كل الأنواع الأدبية .. لقد كان يقول : انه يبحث عن نفسه باستمرار ، لأنه على حد تعبيره : « عمة ضائعة في كومة من القش » ، وكلما أبصر شيئا لامعا وسط القش وظلله عمله ومد يده لالتقاطها فرّت من أمله واختفت مرة أخرى وسط الظلام .

كان يقول انه لا يستطيع تغليب القضايا الإنسانية العامة على القضايا الاجتماعية المحلية ، ولا تغليب القضايا الاجتماعية على القضايا

الانسانية العامة ، ولكن الذي يهيم هو قضية الانسان في صراعه مع القوى
الاقوى منه . . ومع مشكلات مجتمعه سواء ما تعلق منها باعتباره فردا
في جماعة او باعتباره محكوما او حاكما . . « كل هذه القضايا تهيم . .
وتبرز امامه في الوقت الذي يتحتم عنده ان يهتم بها » . . وهذا الوقت
ليس هو الذي يحدده ولكن الظروف هي التي تفرضه . هذا الاسلوب
الذي يريده الحكيم متميزا . . وهذا الصراع . . وهذا الشيء اللامع هو
الذي شغى الحكيم في البحث عنه . . وهو للذي عناءه واقلقه ومضى به
الى مختلف الدروب الملتوية وطوّح به في مختلف الاماق الغريبة !

بل لعل الحكيم ان يكون اشد الناس حرصا على ان يتميز في شكل
معين من اشكال التعبير عن الصراع بحيث يكون لامعا وبحيث يعوض
عليه ما فاتته من حصول على شهادة الدكتوراه في الحقوق وبحيث يعيد
اليه المكتاة المرموقة التي كان امله وذووه يتطلعون اليها ! في ذلك الوقت
كان الحكيم قد اتفق مع شيطان الفن ! (عهد الشيطان) .

ثم يباعد الحكيم بيته وبين تلك الايام التي كان يوالي فيها حضور
(البروقات) يوميا في مرقعة عكاشة . . حين لم يكن يفادر خشبة المسرح
ويود لو التصق بها التصاقاً طول نهاره بضوئها الضئيل وضجيجها الكثير
امام صالة مقفلة نهاراً غارقة في الظلام ليلاً . . ومع ذلك كان كل شيء امامه
زاخراً باهراً على حد تعبيره (سجن العمر) !

ثم يمضي الى باريس « مغترنة العالم . . الواجهة البلورية التي
تعرض خلفها عبقرية الدنيا » (زهرة العمر) .

ويعود بعدها الى مصر . . فماذا يجد فيها بعد تلك الأعوام التي
قضاه في باريس ؟ يجد جوقة عكاشة وقد افلست واختفت . . ومسرح
رمسيس يترنح ويحتضر . . واسماء مسرحية انطفأت بانطفاء المسرح . .
واسماء جديدة لمعت في دنيا الصحافة . . برزت اسماء طه حسين وهيك

والعتاد والمآزني .. نموا بنمو الصحف السياسية .. ونجع الحكيم بها
حدث للمسرح ! (سجن العمر) ويظهر من حيث الشكل بعمل فني موفق ..
يكاد يحس بأنه يفوق سائر الأشكال الفنية المسرحية التي أقامها .. وذلك
في الإطار الذي تمثلت فيه مسرحية (بيجماليون) ! وبجعل مدار هذا
الإطار الصراع .. صراع المرأة والفنان .. صراع الحياة والفن ! ويشغله
هذا الصراع في فترات متباعدة قبل كتابة (بيجماليون) وانتهاء ويعدها ..
ولعله أحس بأهمية هذا الصراع لدى برنارد شسو في (كانديدا) وفي
(الإنسان والسوبرمان) وفي (بيجماليون) .. فكتب (شهرياد)
و (بيجماليون) و (يا طالع الشجرة) !

وقبل أن يكتب مسرحية من مسرحياته يدير مضمونها في خاطره سنة
وسنة وسنة ويجهل الفكرة ذهنه ويدرس ويبحث ويقلب الفكرة على جوانبها
حتى يطمئن إلى الفلسفة التي يصدر عنها وإلى المدرسة الفنية التي
ينتمي إليها وإلى المفهوم الاجتماعي والقيم والمعايير التي يرتاح لها !

ولقد طرح توفيق الحكيم في المقدمة التي صدر بها مسرحيته
(بيجماليون) مجموعة من القضايا لا بد من الوقوف عندها ومناقشتها قبل
أن نحاول الحكم على المسرحية في معمارها الفني وفي مضمونها الفني
والاجتماعي والذهني !

ولكننا قبل أن نمضي في تحليل هذه القضايا على وجوها نتساءل
كيف كان تركيب المجتمع في مصر في الوقت القريب من صدور هذه المسرحية ..
ما هي القضايا التي كانت تشغل الناس .. وماذا كانت همومهم .. وكيف
كانوا يقفون من الاحتلال .. وكيف كان يقف الاحتلال منهم ..

والغريب أننا حين نطالع صورة عن هذا التساؤل نجدها لدى الحكيم
في كتابه (تحت شمس الفكر) ونجدها مناقضة لما يفكر فيه حين ينتج
فناً مسرحياً :

« .. على أن النعيم الحقيقي فيما أرى هو نصيب الفلاح المسكين !
هذا المخلوق العاري القدمين الذي يجوع أكثر الأسبوع .. ولا يرى وجه
القرش الا مصادفة .. كما نرى نحن وجه الحظ عابرا في طريق الحياة !
هذا الذي يسمونه انسانا بحكم النوع وهو في الحقيقة لا يسترعي التفات
انسان ! هذا الأدنى المهمل الذليل لا يرد اعتباره ولا تعود اليه آمنيته
الا في ايام الانتخابات .. فان (صوته) الضائع مع الريح ، كأنه صوت
كلب ضال ، هو اليوم — صوت — له خطره وله سعره وله طلابه وله من
يجري خلفه ويقدره ويدفع فيه نقوداً ، وهذه المعدة الخاوية التي لم يدخلها
غير الفجل والجبنة الذي الدود تنتظرها اليوم واللحمة وتذبح من أجلها ذوات
الاجنحة والقرون .. وتلك الأقدام الحائبة التي لم تعرف غير المشي خلف
حمير السباح توضع اليوم تحت تصرفها السيارات والتاكسيات تنقلها من
حفلة الى حفلة .. نعم انها لا تحسب من غير الفلاح .. وهو بذلك يعرف
انها لن تدوم .. فهو يستمتع بها من غير غرور .. ويراها تزول فما
يأسف ولا يزيد على أن يقول : (كانت ايام استنخاب .. ركبنا فيها قنابل ..
واكلنا زفر .. ودخلت جيوبنا نقية ..) »

تلك صورة من صور المغانة التي كان يعانيها المجتمع المصري في
الاربعينات وقبلها بل وبعدها .. وكان الحكيم على بينة من هذه الصورة ..
فهل حمل هوم الجماعة في معماره الفني ؟

ومن أجل وضوح الصورة نتساءل .. ماذا كان يشغل المجتمع
البريطاني حين كتب برناردشو مسرحيته (بيجاليون) .. وكان شو ينتمي
الى الجمعية الغابية الاشتراكية التي تدعو الى نقد المجتمع ورفض قيمه
البالية ومفاهيمه السقيمة .. والعمل الدائب على تغييره الى مجتمع
افضل تتحقق فيه العدالة وتنتهي فيه الفرص المتكافئة .. ولكن بالطرق
المشروعة دون عنف ثوري .. بل بالعلم .. والبحوث .. والاساليب
الديمقراطية !

وكان من بين هذه القيم التي يرفضها (الفابيون) ومنهم برناردشو تقسيم الناس الى طبقات بالميلاد .. ترث كل طبقة منذ الولادة طريقة نطق الحروف والاصوات في اللغة بحيث تكشف عن مستواها الطبقي .. فطبقة السراة تولد بجهاز نطق معين يمكنها من نطق الاصوات بطريقة رقيقة سامية . والطبقة الدنيا تولد بجهاز نطق لا يمكنها من نطق الاصوات بطريقة سلبية بل تنطقها بحكم طبقتها مشوهة !

ولكن (الفابيين) يعمدون الى التجارب العلمية والى البراهين لدعم نظرياتهم الاشتراكية .. ويلجأ برناردشو الى مختبر اللغات والى التجارب التي يقوم بها استاذ مختص لنقد هذه النظرية الطبقيّة البغيضة ! وتلعب (ليزا) دور البطلة .. وهي تقابل (جالاتيا) في الاسطورة اليونانية .. وتكون صبية صغيرة فقيرة تبيع الزهور في الطرقات واسام واجهات المسارح والنوادي الليلية .. ويلتقطها الاستاذ العالم (هيجنز) .. ويمضي معها في تجارب واختبارات تتعثر حيناً ولكنها تبلغ الغايات العلمية في النهاية .. واذا هذه التجارب تخلق من تلك الصبية انسانة تجيد النطق باللغة الانكليزية في اقل المستويات وارقاها .. واذا هي هي تصبح اقدر من بنات الطبقة السرية العلية .. بل لا يستطيع أبناء العلية السراة ان يميزوا اصل طبقها من نطقها .. وتتعلق بالاستاذ العالم ويتعلق بها بعد ان خلق منها تلك الصورة الرائعة المتميزة ولكنها حين تتدبر الامر في ابعاده الواقعية وتهز نفسها لتتخذ القرار النهائي بالارتباط بأحد اثنين : الاستاذ أو العامل السواق (فريدي) .. تنحني نداء احساسيسها الحاملة جانباً .. وتطرد من خاطرها خدر الاحلام الرومانسية وتكتفي بالقدر الذي ظفرت به من المودة التي تربطها بالسواق (فريدي) .. فتختار الارتباط بالسواق في حياتها العملية زوجاً لها .. وبذلك تتخلى عن (خالقتها) الاستاذ !

وهذا ما جعل الاسطورة تبرز الغيوم والسماء والسحب وتهبط

الى ارض الواقع الملب وتبارس حياة الناس الطبيعية .. وتحمل الهموم
للبرية وتنفس الأحداث وتعيش الحياة !

واذن فقد اختار برناردشو لمسرحيته الذنية قضية من تضاي
مجتمعه التي كانت تشغل الناس في أوائل القرن العشرين .. بل كانت
شغلهم من قبل ذلك كذلك !

ولكن الحكيم يختار لمسرحيته الذنية قضية بعيدة عن هموم
مجتمعه .. بل هي قضية فردية ذاتية خاصة به من حيث هو بطل على
المجتمع من عل وفي استعلاء ذهني !

والامر الآخر ان برناردشو حين عمد الى الاسطورة الاغريقية جردها
من كل اشواكها .. وملتغ عنها كل ثياب الغموض .. ولم ينجر في لجج
ميتافيزيقيتها .. ولا انزل في غياهب غيباتها .. بل احال شخصوها الى
اناس ياكلون الطعام ويشربون الشراب ويمشون مع البشر في الاسواق
وبالتالي لم تعد الاسطورة صورة من صور المعينات على مجتمعه !

اما الحكيم فقد آمن في الاسطورة وانشأها اليها ذيو لا اسطورية بل
ابقاها معينات على افراد مجتمعه .. وغرقها في ضباب لكث .. ومضى
بها في اجواء السحب والغيوم والغموض .. بل واختارها من بيئة بعيدة
عن البيئة العربية .. ولئن كانت رموزها قابلة للحل في بيئتها وذات إحاء
مثير لديهم فقد فقدت الرموز لدى البيئة العربية تلك الايحاءات ولم تعد
دلالاتها قريبة التناول في اذهان المجتمع العربي ولهذا لجأ الحكيم مضطراً
الى اتحام التفسير والتعريف والتوضيح في قلب الحوار ذاته فيمضن المسرحية !
نحن لا ننكر كلية ان الاسطورة والجو الاسطوري يضيفان جواً من
الشاعرية والغلالة المغرية والغموض المعق ويحولان ان يمداً في البعد
الفني .. ولكنهما ان اقتصرنا على ذلك وحده لم يعودا قادرين على لءاء
وظيفتهما الفنية الطبيعية !

الأسطورة في أصلها مدار تجمع .. انتهاء في الفنون الجماعية نقطة لقاء .. تتجمع عندها الأبعاد والاتجاهات واسم الانطلاق ! ومن هذه النقطة أو المكان المعروف الواضح لدى الجميع .. جميع المشاركين في عملية الحياة الفنية ، يبدأ الانطلاق في الاتجاهات المختلفة .. إذن هي نقطة تجمع ومركز انطلاق ومكان يعرفه الجميع ! وعلى هذا النحو كانت منطلق الكتاب المسرحيين الاغريقيين .. بدلاً من أن تبدأ شخصهم رحلة الحياة الفنية من نقطة مجهولة .. يتجمعون في مكان تشد نفوسهم اليه وتلتقي خواطرم عنده .. ومنه ينطلقون !.

وإذن فاصل الأسطورة فيما نفهم الوضوح والمعرفة والايحاءات التي تشد المجموعة من الناس التي ستطلق في رحلتها الحياتية الفنية .. وليس الأمر تعتياً أو تضبيباً أو تغييضاً .. ولكن الحكيم لم ينطلق من هذا المنطلق بل انطلق من زوايا العتمة والضباب والغموض !

إن الأمر ليس حدوده أسطورية أو عرضاً للحدث تاريخي اسطوري انها هو انطلاق الى زاوية رؤية واتخاذ وجهة سير .. وتفسير وتعليل واتخاذ مواقف وانتماء فني .. من أجل هذا كان الجمهور اليوناني يبدأ من نقطة تجمع معروفة ذات أبعاد مألوفة ولكثهم يتجهون ليروا زاوية الرؤية .. وليطمئنوا الى اتجاه السير .. ليختاروا المواقع والمواقف التي تحدد انتماءهم وتشير الى أبعاد فكرهم وفلسفتهم الحياتية بصورة فنية رائعة ! هذا أصل مفهومنا لدور الأسطورة في الفن المسرحي المنطلق عن أحد الموقعين .. عن موقع الصمود لا موقع الانزلاق .. وهكذا كان دورها في الحياة المسرحية الفنية الاغريقية .. ولو أن هذا المفهوم لا ينفي الأبعاد الأخرى التي ركز عليها الفن المسرحي الروماني في أوروبا فيما بعد .. إنما لا يركز عليها بل تأتي على هامش العمل !

ما الذي فعله توفيق الحكيم في المعمار الفني لمسرحيته (بيجماليون)؟
لقد اصر على الصراع .. والصراع فتنة فتن بها الحكيم منذ وطئت قدماء
ارض فرنسا !

وجعل محور هذا الصراع : الرجل الفنان .. و المرأة .. وحاول ان
يتناول في الرجل ابعاده الطبيعية الحياتية وابعاده من حيث هو فنان يغيب
عن الحياة وشؤونها اليومية واشيائها الواقعية ! وحاول ان يتناول في المرأة
ابعادها الإلهامية حين تكون مادة فنية تتشكل تمثالا' تنكشف ابعاده من
خلال زاوية الرؤية التي في يد الفنان الرجل .. ويحاول بين الحين والحين
ان يضيف اليها ظلا' ضئيلا من ظلال الحياة الحقيقية او الواقع الحيائي
ليرى هل يرضى الفنان عن هذا الظل الضئيل الذي اضيف ام ان هذا
الشيء المضاف قد افسد العمل ولم يعد بالإمكان قبوله !

ذلك هو محور الصراع بين الفنان الرجل وبين الحياة المتمثلة في
المرأة .

وكانت زاوية الرؤية تنطلق من منطق رومانسي يؤمن صاحبه
بضرورة الفصل بين الفن والحياة والا' فسد كلاهما على حد رايه !

وكانت زاوية تنطلق كذلك من منطق فلسفي مثالي ميتافيزيقي يؤمن
صاحبه بأن هذه الحياة التي نحياها ما هي الا ظل زائل ومشوه ومؤقت للمثل
اعلى هو الحياة الحقيقية الخالدة الدائمة الكاملة .. بل هي لحظة حلم
بالقياس الى حقيقة الحياة الاخرى ، ومن هنا فالواقع هو لحظة حلم
عابرة .. والحقيقة هي الابدية الخالدة الدائمة !

ولم يكن الحكيم حريصاً على التركيب الاجتماعي الجماعي .. فهو لا
يعنيه في شيء .. انما هو حريص على ان يجعل من الإنسان الفردي المفكر
محور اهتمام لدى كل من حوله دون ان يعبر التفاتاً الى من حوله او ما

حوله ! فهو أشبه بأن يكون في خدر دائم وفي شبه غيبوبة عن واقعه لا يتنازل أن يمسه من قريب أو بعيد .. إنها نظرة استعلاء من الفنان على الحياة وعلى من يعيش تلك الحياة !

من هنا كان التمثال في زاوية من زوايا الدار .. دار الفنان .. مغطى .. لا يجوز أن يقع عليه بصر أحد سوى الفنان أو الآلهة !
إنه ليس تمثالا في إحدى الحدائق العامة .. أو في أحد الميادين التي يرتادها الناس .. أو في إحدى صالات العرض التي يتردد عليها الجمهور ..
انه نتاج فنان واحد لا يهم أحدا سواه .. فهو خلقه الذاتي الخاص به وحده !

هذه المدرسة الفنية .. مدرسة الفن للفن .. وهذه الرومانسية والفردية الاجتماعية .. وهذه الفلسفة والفكر الميتافيزيقي .. كان لها جميعا يد في نسج خيوط هذا العمل الفني المسرحي !

ان فنان الحكيم يريد أن ينطوي على نفسه ، انه لا يريد ان يكون شيئا أكثر من نفسه .. ان نفسه في نظره هي كل شيء .. انه يبقى فردا منفصلا معزولا جزئيا ، انه يريد ان يثبت على جزئيته وحياته الفردية .. انه لا يريد الخلاص من هذه الجزئية بل هو منكسء عليها عاكف عليها .. انه لا يريد ذلك الانسان الكلي .. انه لا يتطلع الى أن يجعل من فرديته كيانا اجتماعيا شاملا .. انه لا يريد أن يندمج في تجارب الآخرين بل في تجارب ذاته فحسب :

ولئن كنا نجد ان الفن — على حد تعبير ارنست فيشر في كتابه : الفن ضرورة للانسان — هو طريق الانسان الفرد للاندماج في الانسان الشامل .. فان الحكيم يتبعد عن هذا المدلول ويريد من فنانه أن يقاوم هذا الاندماج .. بل ويريده أن يبقى على جزئيته وفردته وتميزه وعدم قابليته للاندماج !
يضع الحكيم القاريء امام بيجماليون وجالاتيا وقضيتهما الرئيسة

.. قضية الفن والحياة .. أو قضية الرجل الفنان والمرأة .. أو عمل الفنان حين يتحول الى حياة واقعية .. واذا الحكيم يشتط بالأسطورة ويطوح بها .. ولا يخضع لنواميس الكون والحياة والطبيعة التي خضع لها باني الأسطورة الأول .

الأسطوري الأول اشار إلى أن فنان جزيرة كريت اراد أن يعكف على فنه ويفتفرغ له ولا يبيع لشيء من الحياة أن يصرفه عن فنه فألى على نفسه الا يستسلم للزواج من اية امرأة حتى لا تشغله عن فنه .. ولعله لم يكن يرتاح لتصرفات النساء حين تستبد بهن نزوات الحياة في اعياد فينوس .. الهة الحب .. حيث كان يباح لهن في تلك الأعياد أن يرقصن وبفنن ويمارسن الصباية والهوى ويضجن في مدينة امانتيس جنوب الجزيرة حول معبد الآلهة ... كان ذلك قرار الفنان قبل أن يمارس الحياة ويلذوق لذات الحب ويمارس شؤون القلب .

ويعكف فنان كريت على فنه .. ويصنع فيما يصنع تمثالا من عاج كممثل أعلى من الجمال سماه (جالاتيا) وتلقي فينوس في قلبه حب هذا التمثال الى الحد الذي يضرع معه الى الآلهة تنفت الحياة فيه وتستجيب الآلهة .. وتتحول جالاتيا التمثال الى امرأة يضج فيها الجمال والحب والحياة .. ولم يستطع الفنان أن يبتعد أو أن يتخلى عن جالاتيا الحية فتزوجها .. وكان من ثمرات هذا الزواج والحب (بافوس) مؤسس مدينة (بافوس) .. مدينة الحب الشهيرة في جزيرة كريت !

وهكذا فان الحب اثمر .. والحياة اخصبت في الأسطورة غير أن الحكيم يأخذ هذه الأسطورة ويضيف اليها ذبولا من اساطير أخرى .. ويتوهم أنه يوسع فيها وهو لم يتجاوز العتبات الاولى من الأسطورة .. إذ أنه تحرك في دائرة ضيقة من أبعاد الأسطورة .. في الجزء الأول الذي عكف فيه الفنان على فنه ولم يرض أن يمارس الحب أو يعانق

الحياة أو أن ينتج منها شيئاً .. واقتصر على تلك النظرة الرومانسية التي
توهم بوجود تنافر بين الفن الخالد الكامل النبيل والحياة الفانية الناقصة
النافهة على حد قوله !

الحياة ليست لدى الحكيم نبعا للفن .. وليست تمده أو تعمقه أو
تختار له موقعة وموقفه أو تحدد اتجاه سيره وتلونه وتبعث الخصب
والحركة والسلامة والحيوية في ثنياه !

الحياة والفن تقيضان لديه .. بينهما صدع كبير .. الأولى مفسدة
ناتعة صارفة عن الإنتاج اشبه بومضة حلم لا تلبث .. أن تتلاشى .. واتعميتها
تتقزز منها النفس المستعيلة بالفن .. أما الفن فخلود واكتمال وحقيقة
بالتقاييس الى الحلم وهو نبل كله .. وكذلك لا بد من الارتفاع به الى مصاف
الآلهة بل يتجاوز الفنان ذلك فالآلهة لا تستطيع أن تتجاوز ذواتها كالفنان
بل هي حبسة الوهيتها !

هذه النظرة للفن والحياة عاشت في نفس الحكيم سنوات وسنوات ..
وظلت الفكرة طوال سبع عشرة سنة تلاحقه حتى أقام معماراً في مسرحيته
(بيجمايون) .

ويمضي الحكيم في تفاصيل هذه القضية التي لم تكن تشغل بال
الناس في ذلك الحين بأعدادهم الكثيرة في التركيب الاجتماعي الذي عرضنا
له . أترأى في قلق وهم وضيق لعدم قدرتهم على الفصل بين الحياة
والفن !

ليس من شك في أن هذا الهم كان هم الحكيم وحده .. ولم يقو على
أن يمد في بعد هذا الهم حتى يتجاوز به دائرة ذاته الضيقة .. بل جعله
حبس آفاق فردية .. ولم تتسع به الدائرة حتى تبلغ به مداها أو يبلغ مداه
بها ، ولم يستطع أن ينفذ من خلال بوابة الذات الى ما هو أفسح حين
ترتبط الذات بالجماعة والجماعة بالناس أو بالإنسان !

وحين نعرض لمقدمة برناردشو لمسرحيته (بيجماليون) بل لبضعة
أسطر منها نرى فرق ما بين الموقعين :
يقول شو :

« .. اذا استطاعت مسرحيتي أن تثير الوعي لدى الجماهير بأهمية
وجود علماء الأصوات في انكثرتا وبأهمية ما يجرون من تجارب في الوقت
الحاضر فإنها تكون قد حققت الغرض المرجو منها .. وإني أعلن أنني فخور
بأن (بيجماليون) قد أحرزت نجاحاً منقطع النظير على خشبة المسرح وعلى
شاشة السينما في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية .. كما حدث لها
في الوطن .. إنها مسرحية قصد بها أن تكون فناً موجهاً وأن موضوعها على
درجة كبيرة من الجفاف بحيث راقتني أن أقذف به في وجه أولئك الذين
تصايحوا تصايح البغاوات بأن الفن لا ينبغي له قط أن يكون هادفاً ..
ولقد أكدت هذه المسرحية صدق رأيي في أن الفن العظيم لا يمكن ألا
أن يكون هادفاً !

وهكذا فهذا مسرح ذهني أقدم به برناردشو خشبة المسرح وشاشة
السينما .. دون أن يخشى شيئاً .. وذلك مسرح ذهني أحجم به الحكيم
عن خشبة المسرح ومواجهة الجماهير .. وخشي نتائج المواجهة .. بل
أصابه الخرف والرعب من جراء ذلك !

من أجل هذا لا نستغرب أن ينتمي الحكيم إلى موقع الانزلاق ..
وأن ينتمي برناردشو إلى موقع الصمود .

(د . عبد الرحمن ياغي : مقدمة في دراسة الأدب العربي الحديث) .

إنه لا يحمي من الانزلاق البشع إلا الالتزام مع الجماهير صاحبة
القضية بمنهج وفكر فلسفي اجتماعي يحدد المعايير والموازن ويوجه عدسة
الرؤية ويبلو شبكيتها ويضمن لها الزاوية السليمة ويوضح حركة سير
التاريخ ويحللها ويفسرهما ويعين على معرفة اتجاه سيرها .

والذين يجافون الحياة والناس ولا يرون الا انفسهم وبهميون بمثالية كوزموبوليتانية ورومانسية حالة كثيراً ما ينزلون في المواقع والمواقف والانتماءات .. حيث يكونون شديدي الحرص على امتيازاتهم وتفردهم ولا يؤذيهم كثيراً ان يحيط بهم جمع غفير محروم مما يملكون .. إنهم يتورمون تورماً غير صحي وينتفخون انتفاخاً أجوف .. ويظهر كل ذلك في أدبهم او فنهم .. حيث ينصبون لانفسهم مرايا في اربعة الاركان المحيطة بهم . بحيث تكون شخصهم بعدا من ابعادهم هم .. ويكون زمام امور هذه الشخص في ايديهم يحركونها كالدمى في غير حرية وغير منطلق الا منطق الذات المنكفئة على نفسها !

من هنا يسهل توريث الرومانسيين في مزالق حين يضمنون لانفسهم امتيازات خاصة !

أما دعاة الحياة ممن يشعرون بأن امتيازهم جزء من مكاسب الناس .. وحربتهم ممتدة من حرية الجماعة .. ومكاسبهم تنمو بنمو مكاسب الناس .. وتكاثر بكثرة مكاسب الجماهير .. وتوهج من خلال توهجهم .. هذا النوع من المكاسب التي لا تتناقض مع مكاسب الجماهير .. تنعكس في ادبهم وفنونهم .. !

صحيح إن بعض الكتاب الذين توهجت حرارة الظروف من حولهم كانوا في حماية من السقوط .. أمثال الكتاب الجزائريين والكتاب الفلسطينيين والكتاب الذين خاضت مجتمعاتهم معركة مع تناقضها الاكبر .. الاستعمار والصهيونية ..

ولكن بعض الكتاب الذين مضوا مع حركة الجماهير فترة من الزمن عادوا وتكسوا على اعقابهم وانزلقوا وانحرفوا عن خط السير الثوري وآثروا السلامة والاستسلام واتكفوا يتغياون في سفح الموقع المتردي في الانزلاق !

احزننا امر هؤلاء .. لاننا لم نكن نستطيع ان نضع ايدينا على
المواطن التي تشير الى إمكانية انزلاقهم فيما صغر عنهم من آداب وفنون
قبل سقوطهم .

والحق إننا الآن وبعد سقوطهم قد نتلمس ثغرات في ادبهم تدل عليه
.. لكن قبل السقوط لم يكن ذلك ممكناً ..

نستطيع ان نعود الى قراءة آثار نجيب محفوظ فنضع ايدينا على
هزيمة الشخص البرجوازيين ولا سيما في (بين القصرين) وفي (قصر
الشوق) وفي (السكرية) ..

» .. اهرب ، ما من الهرب بد ، إن لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع
والأقدام ما أسرع ما تفلت منك الذكريات .. ماذا تريد ؟ ان تهتف ؟
اي هتاف ؟ ... هل تسمع ؟ هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لاشيء .. لاشيء ..
ظلام في ظلام ... ! « (بين القصرين) !

صحيح إن أدباء الواقعية لا يخلون تبعات الشخص .. لانهم
يخلقونهم .. ويتركون لهم حرية التصرف الذي تنحكم فيه الظروف
الموضوعية .. ولكنهم في النهاية مسؤولون عن اتجاه السير .. ومنطق هذا
الاتجاه !

والصحيح ان نجيب محفوظ سقط في نهاية الشوط .. اما في
المسيرة الطويلة فقد كان حريصاً حذراً .. يربط وسطه بطرف جبل
ويتحرك في دروب الواقع والحياة حتى يضمن الا يضل به الدرب . وقد
حماه حذر الى حين تعرض للتجربة التي تفرز اصحاب المواقع .. فلم
ينجح في التجربة .. ولكنه سقط المرحلة الأخيرة .. وكذلك الامر مع
الدكتور يوسف ادريس وإخوتهم الذين اتعبهم المسير النضالي فخطوا
عصا الترحال ! لانريد ان نتكلف البحث عن مواطن تشير الى انزلاقهم في

ادبهم او في مسيرتهم الفنية .. إن التنبؤ بسقوطهم كان صعباً في حقيقة الأمر !

أما الذين انصرفوا عن الحياة والناس فهم من البداية في الموقع المضاد تدل عليهم آثارهم .. !

ولعل أوضح ما ينطلق من الموقعين المتقابلين :

موقع الانزلاق ، وموقع الصمود .. كتابان سجلا رقما قياسياً في توزيعهما عام ١٩٧٥ .

الأول صدر في القاهرة لتوفيق الحكيم (عودة الوعي) .

والثاني صدر في بيروت لمحمد عودة (الوعي المفقود) .

حيث يعرّي الثاني فكر الأول السياسي وضحالته وميله الى الانحدار والانزلاق والسقوط !

وإذن هناك مواقف في الإنتاج تشير الى حتمية السقوط من بداية الشوط .. وهناك سقوط لم يقع إلا في نهاية الشوط ينهنا بعد وقوعه الى حتمية وجود مواقف في الإنتاج لم تكن واضحة لنا ابتداء .. ولم ينبه لها إلا السقوط الأخير .. ولكنها هي لم تستطع أن تتنبأ بحتمية السقوط .. ومن هنا فإن إيدبنا على قلوبنا خوفاً على أن نزل الأقدام بفريق من شرفاء الكتاب لا يزالون يواصلون النضال من أجل الكلمة المضيفة المتوهجة .. نرجو لهم الثبات في دروب المواقع الصامدة .

ونحن بعد كل هذا الذي عرضنا له نطمح في التخطيط للدراسة موضوعية شاملة .. ونطمح في العمل على تنفيذها بحيث يتم التعامل مع الأدباء الذي تشتمل عليهم الدراسة من نظرة شمولية موثقة مدعومة بوثائق من آثارهم .. لا تفصل بين الأثر وصاحب الأثر .. من أدق الخصوصيات

الى اوسع الافاق .. تحاور حياة الادباء الخاصة باشيائها الصغيرة الى ان تمتد فتحاور قضايا الانسان المصرية المعاصرة .. وتضع ذلك كله في دائرة الضوء المفسر المحلل الناقد الكاشف المقارن .. وتقف هذه الدراسة وقفة متأنية معلة للظروف الموضوعية والمبادرات الخاصة والإرادة المحددة التي شاعت للاديب أن ينعطف عن خط السير ووجهته السليمة في حياته وادبه ونظراته !

ونحن لا نريد ان تكلف الادباء شططاً .. ولا نطلب منهم أن يقفوا المواقف النادرة التي وقفها الافذاذ .. امثال ابن حنبل .. وابي در الغفاري .. والحلاج .. وناظم حكمت .. ولوركا .. ونيرودا .. وبريخت .. واحمد فؤاد نجم . والشيخ إمام .. وسواهم من اصحاب التضحيات الكبيرة .. إنما نريد الظروف الطبيعية التي تقوى على الصمود فيها الانفس النقية الشريفة !

أما بعد فنعود ونستظل بجناح الآية الكريمة : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها :

عمان — الأردن
<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

في اكتوبر ١٩٧٩

